

[القسم الأول من هذا الكتاب ما يتعلق بعلم الأصول]

واعلم أن القرآن العظيم قد دلّ على أن معاهد الإيمان مبنية على أمور أربعة كما قال ﷺ: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكَيْهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [البقرة: 285]، ونحن رتبنا علم الأصول على هذه القواعد الأربعة:

القاعدة الأولى في معرفة الله تعالى: واعلم أن معرفة الله تعالى لا تحصل إلا بأمور خمسة: معرفة الذات والصفات والأفعال والأحكام والأسماء. ونحن جعلنا معرفة الله تعالى مبنية على هذه الأصول الخمسة:

«الباب الأول معرفة الذات»

وفيه فصول:

الفصل الأول: في أسرار كلمة [لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ]

قال الله تعالى لرسوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: 19] واعلم أنه تعالى قدم الأمر بمعرفة التوحيد على الأمر بالاستغفار، والسبب فيه أن معرفة التوحيد إشارة إلى علم الأصول⁽¹⁾ والاشتغال بالاستغفار إشارة إلى علم الفروع. والأصل يجب تقديمه على الفرع فإنه ما لم يعلم وجود الصانع امتنع الاشتغال بطاعته وخدمته وهذه الدقيقة معتبرة في أي كثيرة.

أولها: أن إبراهيم عليه السلام لما اشتغل بالدعاء قدم المعرفة على الطاعة فقال: ﴿رَبِّ

(1) أي علم أصول الدين (العقائد).

هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِيقِي بِالصَّبْلِيحِينَ ﴿ [الشعراء: 83] فقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾ إشارة إلى استكمال القوة النظرية بمعرفة حقائق الأشياء، وقوله: ﴿وَالْحَقِيقِي بِالصَّبْلِيحِينَ﴾ إشارة إلى استكمال القوة العملية بالاجتناب عن طرفي الإفراط والتفريط فقدّم العلم على العمل والله أعلم.

وثانيهما: أنه تعالى لما أوصى إلى موسى ﷺ راعى هذا الترتيب فقال تعالى: ﴿وَأَنَا أَخَفْرُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ [طه: 13-14] فقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ إشارة إلى علم الأصول، وقوله: فاعبدي، إشارة إلى علم الفروع.

وثالثها: أن عيسى ﷺ لما أنطقه الله في وقت الطفولية⁽¹⁾ قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ﴾ [مريم: 30] فقوله ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ إشارة إلى علم الأصول وقوله: ﴿ءَاتَنِي الْكِتَابَ﴾ إشارة إلى علم الفروع، فإن الاحتياج إلى الكتاب إنما يكون في معرفة الأحكام والشرائع لا في معرفة ذات الله وصفاته.

ورابعها: الآية التي نحن فيها على ما قررناه ولا نزاع أنّ أفضل الأنبياء والرسل هؤلاء الأربعة، فلما ثبت أن الله تعالى قدّم الأمر بمعرفة الأصول على معرفة الفروع في حق هؤلاء الأنبياء المكرمين ثبت أن الحق الصحيح الصريح ليس إلا ذلك، ومما يؤيد ذلك وجوه أخرى:

أحدها: أن أكثر المفسرين على أن أول ما أنزل الله تعالى على محمد ﷺ هو قوله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ [العلق: 1 - 5] وهذه الآية مشتملة على دلائل التوحيد وذلك أن أظهر الدلائل الدالة على وجود الصانع الحكيم تولد الإنسان من تلك النطفة. ثم إنه تعالى نبّه في هذه الآية على لطيفة عجيبة ولا يتأتى شرحها إلا في معرض السؤال والجواب. فإن قال قائل: لا بد في رعاية النظم بين آخر الكلام وأوله، وهاهنا ذكر الله تعالى تولد الإنسان من النطفة فقال: ﴿الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ [العلق: 1-2] ثم ذكر بعده:

﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: 5]، فأى مناسبة بين هذين الأمرين؟

(1) الطفولية: هكذا وجدنا في النسخة الموجودة بحوزتنا، والظاهر: الطفولة.

والجواب: أن أخس المراتب وأدناها العلقة وذلك لأنه يستقذرها كل أحد، وأعلى المراتب وأشرفها كون الإنسان عالماً محيطاً بحقائق الأشياء، كأنه قال تعالى: عبدي تأمل إلى أول حالك حيث كنت علقة وهي أخس الأشياء وإلى آخر حالك حيث صرت ناطقاً عالماً بحقائق الأشياء وهو أشرف المراتب حتى يظهر لك أنه لا يمكن الانتقال من تلك الحالة الخسيسة إلى هذه الدرجة الرفيعة الشريفة إلا بتدبر أقدر القادرين وأحكم الحاكمين سبحانه وتعالى عن قول الظالمين.

وثانيها: أنه تعالى في أول سورة البقرة مدح المؤمنين من أول السورة إلى قوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ثم ذم الكافرين في آيتين أولهما قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ ءَلَمْ تَأْنِذَهُمْ نَبَأًا مِمَّا يَدْعُونَ﴾ [البقرة: 6 - 7]، ثم ذم المنافقين في ثلاث عشرة آية أولها قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿يَتَّبِعُوا النَّاسَ أَنعَبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ [البقرة: 8 - 21] ثم لما مدح المؤمن وذم الكافر والمنافق كأنه قيل هذا المدح والذم لا يستقيمان إلا بتقديم الدلائل على أسباب التوحيد والنبوة والمعاد، فإن أصول الإسلام هي هذه الثلاثة فهذا السبب بين الله تعالى صحة هذه الأصول الأربعة بالدلائل القاطعة فبدأ أولاً بإثبات الصانع وتوحيده وبين ذلك بخمسة أنواع من الدلائل:

أولها: أنه تعالى استدل على التوحيد بأنفسهم وإليه الإشارة بقوله: ﴿رَبِّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾.

وثانيها: بأحوال آبائهم وأجدادهم وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾.

وثالثها: بأحوال الأرض وإليه الإشارة بقوله: ﴿جَعَلْ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ فِرَاشًا﴾ [البقرة: 22].

ورابعها: بأحوال السماء وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [البقرة: 22].

وخامسها: بالأحوال الحادثة المتعلقة بالسماء والأرض وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: 22] فإن السماء كالأب والأرض كالأم تنزل قطرة من صلب السماء إلى رحم الأرض فيتولد منها أنواع النبات. ولما ذكر هذه الدلائل الخمسة رتب المطلوب عليها فقال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 22] وذلك لأن هذه الدلائل تدل على وجود الصانع من

وجه وعلى كونه تعالى واحداً من وجه آخر، فإنها من حيث إنها حدثت مع جواز أن لا تحدث ومع جواز أن تحدث على خلاف ما حدثت يدل على وجود الصانع القادر، ومن حيث إنها حدثت لا على وجه الخلل والفساد دلت على وحدة الصانع كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: 22] فلهذا السبب ذكر بعد تلك الدلائل الخمس ذينك المطلوبين: أحدهما إثبات الصانع والثاني إثبات أنه واحد لأن قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ مشتمل على إثبات الإله وعلى إثبات كونه واحداً، ثم هاهنا لطيفة أخرى مرعية في هذه الآية وهي أن الترتيب الحسن المفيد في التعليم من الأظهر فالأظهر مرتقياً من الأخفى فالأخفى وهذه الدقيقة مرعية في هذه الآية وذلك أنه ﷺ قال: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: 21] فجعل استدلال كل عاقل بنفسه مقدماً على جميع الاستدلالات لأن اطلاع كل أحد على نفسه أتم من اطلاعه على أحوال غيره فيجد بالضرورة من نفسه أنه تارة يكون مريضاً وتارة صحيحاً، وتارة متلذذاً وتارة متألماً، وتارة شاباً وتارة شيخاً والانتقال من بعض هذه الصفات إلى غيرها ليس باختياره ولا باختيار أحد، وأيضاً فكثيراً ما يجتهد في طلب شيء فلا يجد وكثيراً ما يكون غافلاً عنه فيحصل، وعند ذلك يعلم كل أحد عند نقض العزائم وفسخ الهمم أنه لا بد من مدبر يكون تدبيره فوق تدبير البشر، وربما اجتهد العاقل الذكي في الطلب فلا يجد والغر الغبي يتيسر له ذلك المطلوب، فعند هذه الاعتبارات يلوح له صدق قول الشافعي ﷺ:

[ومن الدليل على القضاء وكونه بؤس اللبيب وطيب عيش الأحق] ويظهر له أن هذه المطالب إنما يحصل ويتيسر بناء على قسمة قسام لا يمكن منازعته ومغالته كما قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الزخرف: 32]. ثم إن مراتب هذه الاعتبارات غير محصورة فتارة كما في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [الشم: 62]، وأخرى كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَكْفُرْكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [الأنبياء: 42]. وبالجملة فلما كان اطلاع كل أحد على أحوال نفسه أشد من اطلاعه على أحوال غيره لا جرم قدم هذا الدليل على سائر الدلائل ثم هذه المراتب يتلوها مرتبة أخرى وهي علم كل واحد بأحوال آبائه وأجداده وأهل بلده، ثم هذه المرتبة الثانية يتلوها مرتبة ثالثة وهي علم الإنسان بأحوال الأرض التي هي مسكن الخلائق فإنها مختلفة الأجزاء كما قال: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَوِّزَاتٌ﴾ [الرعد: 4] وقال أيضاً: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: 27]، ثم هذه المرتبة الثالثة يتلوها مرتبة

رابعة وهي العلم بأحوال الأفلاك فإن بعضها يخالف البعض في العلو والسفل والصغر والكبير والبطؤ والسرعة اختلاف أحوال الكواكب المركوزة فيها كما قال تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يسر: 40] وقال: ﴿رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [الشعراء: 28] وقال: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: 17] وقال: ﴿فَلَا أُقِيمُ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [المعارج: 40] وقال: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِي﴾ [الأعراف: 54] وقال تبارك وتعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان: 61] وقال في سورة نوح: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ [نوح: 15 - 16] وقال في سورة يس: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا آتِلُ سَابِقِ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يسر: 40] وقال تعالى: ﴿فَلَا أُقِيمُ بِالْغَيْبِ﴾ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَالْأَيْلِ إِذَا عَنَّسَ ﴿١٧﴾﴾ [التكوير: 15 - 17].

وبعد هذه المرتبة الرابعة مرتبة خامسة وهي الأحوال المنزلة من السماء والأرض وهي نزول المطر من صلب السماء ووقوعه في رحم الأرض، ثم بعد ذلك يحدث في الأرض الواحدة أنواع من النبات بحيث يخالف كل واحد منها صاحبه في اللون والشكل والطعم والطبع والخاصية فمنه ما يكون قوتاً ومنه ما يكون أداماً ومنه ما يكون فاكهة ومنه ما يكون دواء ومنه ما يكون سماً ومنه ما يكون علفاً لسائر الحيوانات، فذكر في تفصيل المطعومات قوله تعالى: ﴿أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿١٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿١٦﴾﴾ [عبس: 25 - 26] إلى آخره، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْغَيْبِ وَالنَّوَى﴾ [الأنعام: 95] بل إذا نظرت إلى ورقة واحدة من أوراق الورد وجدت أحد وجهيها في غاية الحمرة والوجه الآخر في غاية الصفرة مع أنها تكون في غاية الدقة وقلة الشخانة، ونحن نعلم بالضرورة أن نسبة تأثير الكواكب وحركات الأفلاك والطبائع إلى كل واحد من وجهي تلك الورقة الدقيقة جداً من الورد نسبة واحدة فاختصاص أحد وجهي تلك الورقة بالحمرة والأخرى بالصفرة لا بد وأن يكون لأجل القادر المختار الذي يفعله بالعلم والقدرة لا بالغلبة والطبيعة.

وإذا عرفت ذلك ظهر أن الله تعالى في ترتيب هذه الدلائل الخمسة وتقديم بعضها على بعض حكماً بالغة وأسراً مرعية فسبحان من لا نهاية لعلمه ولا غاية لحكمته. ثم إنه تعالى لما بين دلائل الذات لإثبات الصانع ووجدانيته أردف هذه المسألة بمسألة إقامة الدلالة على نبوة محمد ﷺ هي قوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: 23] وذلك لأن التحدي وقع بكل القرآن في

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: 88] فلما عجزوا عن معارضة كل القرآن أتبعه بالتحدي بعشر سور من القرآن فقال: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفَرَّدَاتٍ﴾ [هود: 13] فلما عجزوا عنه أتبعه بالتحدي بسورة فقال هاهنا: ﴿يُسَوِّرْ قِمْنَ مِثْلِهِ﴾ فلما عجزوا عنه أتبعه بالتحدي بأية: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ﴾ [الطور: 34] فلما عجزوا عنه مع توفر الداعي ظهر كونه معجزاً باهراً وبرهاناً قاهراً.

ثم إنه أتبع هذه المسألة بمسألة المعاد وهي قوله تعالى:

﴿وَيَسِّرِ الْآيَاتِ ءَامِنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنْ لَّهُمْ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: 25] كأنه قيل: إنا قدمنا مدح المؤمنين وذم الكافرين والمنافقين فلو لم يكن معاد يجد المحسن ثمرة إحسانه ويجد المسيء عاقبة إساءته لم يكن ذلك لانقاً بحكمتي وهذا هو المراد في قوله في «النجم»: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنَى﴾ [النجم: 31].

وقال تعالى في «طه»: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ ءَانِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: 14 - 15]، وقال في «ص»: ﴿أَمْ تَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ تَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: 28] وظهر بما ذكرنا أنه تعالى لم يذكر في أول كتابه إلا دلائل التوحيد والنبوة والمعاد وثبت أنه لا بد من تقديم الأصول على الفروع ولهذا السبب قدم الله الأمر بالتوحيد على الأمر بالاستغفار فقال: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [محمد: 19].

[الوجه الثالث]: في تقرير هذا الأصل أنه تعالى قال في أول سورة النحل: ﴿يُنزِلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾.

فقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ إشارة إلى علم الأصول وقوله: ﴿فَاتَّقُونِ﴾ إشارة إلى علم الفروع.

[الوجه الرابع]:

أن موسى عليه السلام لما ادعى الرسالة عند فرعون، قال له فرعون: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: 23] يعني أن رسالتك متفرعة على إثبات أن للعالم إلهاً؛ فما الدليل عليه؟

ثم إن موسى ﷺ لم ينكر هذا السؤال بل اشتغل بذكر الدلائل الدالة على وجود الصانع فقال: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ﴾ [الشعراء: 26] فاستدل على وجود الصانع أولاً: بأحوال نفسه، وثانياً: بأحوال آباءه.

وهو نظير قوله في سورة البقرة: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: 21]؛ فظهر بما ذكرنا، وجوه الفائدة في أنه تعالى ذكر أولاً قوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ وذكر ثانياً: ﴿وَأَسْتَغْفِرْ لِدُنْيِكَ﴾ والله أعلم بحقائق كتابه؛ فهذا ما يتعلق بالدلائل القرآنية الدالة على تقديم علم الأصول على علم الفروع، ولنتأكد هذه الوجوه بخمسة عشر وجهاً:

الوجه الأول: هو أن شرف العلم بشرف المعلوم، فمهما كان المعلوم أشرف كان العلم الحاصل به أشرف فلما كان أشرف المعلومات ذات الباري وصفاته وجب أن تكون معرفته وتوحيده أشرف المعلوم.

الحجة الثانية⁽¹⁾: أن العلم إما أن يكون دينياً أو يكون غير ديني، ولا أشك في أن العلم الديني أشرف من غير الديني، وأما العلم الديني فإما أن يكون علم الأصول أو ما عداها، أما ما عدا علم الأصول فإن صحته موقوفة على صحة علم الأصول؛ لأن المفسر إنما يبحث عن معاني كلام الله وذلك فرع على معرفة الصانع المختار المتكلم، وأما المحدث فإنما يبحث عن كلام رسول الله ﷺ، وذلك فرع على ثبوت نبوته، والفقهاء إنما يبحث عن أحكام الله تعالى، وذلك فرع على ثبوت التوحيد والنبوة؛ فثبت أن هذه بأسرها مفتقرة إلى علم الأصول، وظاهر أن علم الأصول غني عنها بأسرها فوجب أن يكون علم الأصول أشرف.

الحجة الثالثة: أن شرف الشيء قد يظهر بواسطة خساسة ضده، فكلما كان ضد الشيء أخس كان هو أشرف، ولا شك أن ضد علم الأصول هو الكفر والبدعة وهما من أخس الأشياء فوجب أن يكون علم الأصول من أشرف العلوم.

الحجة الرابعة: أن شرف العلم تارة يكون لشرف موضوعه وتارة لشدة الحاجة إليه، وتارة لقوة براهينه ودلائله؛ وذلك لأن علم الهيئة أشرف من علم الطب نظراً إلى أن موضوع علم الهيئة أشرف من موضوع علم الطب، وإن كان علم الطب أشرف من

(1) الحجة الثانية: غير التعبير بالوجه إلى التعبير بالحجة هنا وفي الثلاث عشرة الباقية.

حيث إن الحاجة إلى علم الطب أشد، وعلم الحساب أشرف منهما من حيث إن براهين هذا العلم أقوى، وعلم الأصول يستجمع لهذه الخصال:

أما شرف الموضوع فذلك لأنّ المبحوث عنه ذات الله وصفاته وقده وعظمته، ولا شكّ أنها أشرف، وأما شدة الحاجة فظاهر، لأن الحاجة إما في الدين وإما في الدنيا، أما في الدين فلأن من عرف هذه المطالب استحق الثواب العظيم وتخلص من العقاب العظيم⁽¹⁾ وصار من زمرة الملائكة المقربين في جوار رب العالمين، ومن جهلها صار محروماً من الثواب العظيم مستوجباً للعقاب الأليم وصار من زمرة الأبالسة والشياطين، وبقي في دركات الضلالة أبد الآباد ودهر الداهرين وأما في الدنيا، فلأن معظم مصالح العالم إنما تنتظم بسبب الرغبة في الثواب والرّهبة من العقاب وإلا لوقع الهرج والمرج في العالم.

وأما قوة براهين هذا العلم فلأن براهينها مركبة من المقدمات البديهية الضرورية، وهي أقوى العلوم والمعارف فثبت أن علم الأصول مستجمع خصال الشرف فوجب أن يكون أشرف العلوم.

الحجة الخامسة: أن هذا العلم لا يتطرق إليه التسخ والتغيير ولا يختلف باختلاف النواحي والأمم بخلاف سائر العلوم فوجب أن يكون أشرف العلوم.

الحجة السادسة: أن الإنسان لا يكون من أهل النجاة والدرجات إلا مع هذا العلم، وقد يكون من أهل النجاة وإن لم يتعلم شيئاً من الفقه أصلاً ألبتة.

أما أنه لا بُدّ في النجاة من علم الأصول فلأن الجاهل بالله العليّ وصفاته الحقّة لا يكون من أهل النجاة بالإجماع، وأما أنه قد تحصل النجاة بدون الفقه فلأن الإنسان قبل البلوغ لا يكون مكلفاً بشيء من الأعمال؛ فإذا بلغ وقت الضحوة ففي هذه الساعة لم يجب عليه شيء من الصلوات والزكوات والصيامات وسائر العبادات؛ فلو مات في هذه الساعة مع المعرفة والتوحيد لقي الله مؤمناً حقاً. ولو قدرنا أن هذا الذي بلغ كان امرأة ثمّ لمّا بلغت حاضت وبقيت مدةً أخرى في البلوغ وهي غير مكلفة لا بالصلاة ولا بالصيام ولا القراءة فإذا انقضى زمان حيضها ماتت فهي قد لقيت حضرة الله تعالى مؤمنةً حقاً فعلمنا أن النجاة واستيجاب الدرجات لا يتوقف على الفقه وهي موقوفة

(1) العظيم: كذا في الأصل، والظاهر: الأليم بقريته قوله في الفقرة الآتية: (للعقاب الأليم).

بالألفاظ الفصيحة عجز عن ذكرها بعينها مرة أخرى بالألفاظ الفصيحة؛ فيستدل بفصاحة الكل على كونها من عند الله لا من عند البشر، فدلّ هذا على أن معظم القرآن في علم الأصول فلنشر إلى (معاهد)⁽¹⁾ الدلائل أما دلائل التوحيد فتارة (بانخلاق)⁽²⁾ الإنسان من النطفة والله تعالى ذكر هذه الدلائل في القرآن أكثر من ثمانين مرة، وتارة بدلائل الآفاق وهي أحوال السماء والأرض والهواء والنبات والحيوان، وهي أظهر من أن يحتاج للشرح.

وأما الدلائل الدالة على الصفات فنقول: أما الذي يدل على العلم فكقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: 5] (ثم أردفه بقوله جلّ وعز)⁽³⁾: ﴿هُوَ الَّذِي يُمَوِّدُكُمْ فِي الْأَنْحَارِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: 6] (و)⁽⁴⁾ هذا هو دليل المتكلمين فإنهم يستدلون بأحكام الأفعال وإتقانها على علم الفاعل؛ فهاهنا استدلال سبحانه بتصوير المصور في ظلمات الأرحام على كون الفاعل عالماً وقال أيضاً: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: 14] وهو (غني عن)⁽⁵⁾ تلك الدلالة وقال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: 59] وهذا تنبيه على كونه تعالى عالماً بكل المعلومات لأنه تعالى يخبر عن المغيبات فتقع تلك الأشياء على وفق ذلك الخبر، وذلك يدل على كونه⁽⁶⁾ تعالى عالماً بالمغيبات.

وأما صفة القدرة فكل ما ذكر الله تعالى في القرآن من الشمار المختلفة والحيوانات المختلفة مع استواء تأثير الطبائع والأفلاك فإنه يدل على صفة القدرة، وسيجيء الاستقصاء في هذه الدلائل القرآنية إن شاء الله تعالى.

الحجة التاسعة: أن الله تعالى حكى عن أكثر الأنبياء: أنهم كانوا طول عمرهم مشتغلين بهذه الدلائل ولندكر ما يدل على المقصود: أما الملائكة فإنهم لما قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: 30] كان المراد أن خلق أمثال

(1) [معاهد] في (ب) معنى .

(2) [بانخلاق] في (ب) بخلق .

(3) [ثم أردفه بقوله جلّ وعز] ساقط من (ب) .

(4) [و] ساقط في (أ) .

(5) [غني عن] في (ب) عين .

(6) في (ب) [على أن كونه] .

هؤلاء سبب الشرِّ والفتنة وذلك قبيح والحكيم لا يفعل القبيح؛ فأجابهم الله تعالى بقوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 30] والمعنى - والله أعلم - : إني لما كنت عالماً بكل المعلومات كنت قد علمت في خلقهم وإيجادهم (1) حكمةً لا تعلمونها (2) أنتم فلما سمعوا ذلك سكتوا.

فأما مناظرة الله تعالى مع إبليس - نعوذ بالله منه - فالقرآن ناطق بها، وأما الأنبياء فأولهم آدم عليه السلام وقد أظهر الله تعالى الحجة على فضله بأن أظهر علمه على الملائكة وذلك محض الاستدلال.

وأما نوح عليه السلام فقد حكى الله تعالى عن الكفار أنهم قالوا: ﴿يَنْتُوخُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا﴾ [هود: 32] ومعلوم أن مجادلة الرسول ﷺ مع الكفار لا تكون في تفصيل الأحكام الشرعية فلم يبق إلا أنها كانت في التوحيد والنبوة وأيضاً فإنه عليه السلام لما أمرهم بالاستغفار في قوله: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: 10] ففي الحال ذكر ما يدل على التوحيد فقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: 15-16].

وأما إبراهيم عليه السلام فالاستقصاء في شرح أحواله يطول في هذا الباب (3)، وله مقامات: أحدها مع نفسه وهو قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ أَيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: 76]، إلى آخر الآية، وهذه هي طريقة المتكلمين فإنه استدل بأقولها وتغيرها على حدوثها ثم استدل بحدوثها على وجود محدثها كما أخبر الله تعالى عنه في قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُقَوِّمُ إِنِّي بَرِيءٌ وَمَا أَشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: 78 - 79]، ثم إن الله تعالى عظم شأنه بسبب ذلك فقال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَن قَوْمِهِ زَفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ﴾ [الأنعام: 83]، وأيضاً أتى وقت دعائه (4) ما هو محض الاستدلال وهو قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ [الشعراء: 78 - 79] إلى آخر الآية.

(1) وإيجادهم في (ب) واتخاذهم.

(2) تعلمونها في (ب) تعلمون بها.

(3) يطول في هذا الباب في (ب) (في هذا الباب يطول).

(4) أتى وقت في (ب) قال في وقت.

وثانيها: (1) حال إبراهيم عليه السلام مع أبيه وهو قوله: ﴿يَتَأْتِيَ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مريم: 42] إلى آخر الآيات.

وثالثها: حاله مع قومه تارة بالقول وأخرى بالفعل أما القول فقوله: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلَ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء: 52] وأما الفعل فقوله: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: 58].

ورابعها: حاله مع ملك زمانه حيث قال: ﴿رَبِّهِ الَّذِي يُخَيِّمُ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: 258] إلى آخر الآية فهذا كله مباحث إبراهيم في معرفة المبدأ، وأما بحثه في معرفة المعاد فهو قوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [البقرة: 260] آخره.

وأما موسى عليه السلام فانظر إلى مباحثه مع فرعون. واعلم أن موسى عليه السلام كان يعول في الاستدلال على دلائل إبراهيم، وذلك لأنه حكى في سورة طه أن فرعون قال له ولسهارون: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: 49-50]. وهذا هو الدليل الذي ذكره إبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [٧٨] ثم حكى تعالى عن موسى في سورة الشعراء أنه قال لفرعون: ﴿رَبِّكَ وَرَبِّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ وهذا هو الذي عول عليه إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿الَّذِي يُخَيِّمُ وَيُمِيتُ﴾ فلما لم يكتف فرعون بذلك وطالبه بدليل آخر فقال موسى عليه السلام: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [الشعراء: 28] وهذا هو الذي عول عليه إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿قَاتِلَ اللَّهِ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأَتِي بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: 258] فهذا ينبهك على أن التمسك بهذه الدلائل حرفة هؤلاء الأنبياء ثم إن موسى عليه السلام لما فرغ من تقرير دلائل التوحيد ذكر بعده دلائل النبوة فقال: ﴿أُولَٰئِكَ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: 30] فهذا يدل على أنه عليه السلام فرغ بيان النبوة على بيان التوحيد والمعرفة.

وأما سليمان عليه السلام فله مقامان: أحدهما في إثبات التوحيد والآخر في إثبات النبوة، أما المقام الأول في إثبات التوحيد فهو قوله عليه السلام حكاية عنه: ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل: 25 - 26] وهذه الآية دالة على وصف الله بالقدرة

(1) وثانيها إلى قوله «يخرج الخبء في السماوات» ساقط في (ب).

والعلم، أما القدرة فقولته: ﴿يُخْرِجُ الْخَبَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وسمي المخبوء بالمصدر، وهو يتناول جميع أنواع الأرزاق والأموال، وإخراجه من السماء بالغيث ومن الأرض بالنبات، وتقريره ما قدمنا.

وأما العلم فيدل على ثبوته⁽¹⁾ قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾.

واعلم أن المقصود من هذا الكلام الرد على من يعبد الشمس وتلخيص الدلالة على قانون الجدل على وجهين:

الأول: الإله يجب أن يكون قادراً على⁽²⁾ إخراج الخبء ويكون عالماً بالخفيات والشمس ليست كذلك فهي لا تكون إلهاً، أما أنه سبحانه يجب أن يكون قادراً عالماً بالخفيات فلما أنه كان⁽³⁾ واجب الوجود لذاته فلا يختص قدرته وعلمه ببعض المقدورات وبعض المعلومات دون البعض، وأما أن الشمس ليست كذلك فلأنها جسم متناهٍ وكل ما كان متناهياً في الذات كان متناهياً في الصفات، وإذا كان كذلك امتنع أن تكون الشمس قادرة على الخبء وعالمة بالخفيات وإذا لم يعلم من حالها ذلك لم يعلم من حالها⁽⁴⁾ كونها قادرة على جلب المنافع ودفع المضار، فرجع حاصل هذا الدليل إلى ما ذكره إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً﴾ [مريم: 42].

والوجه الثاني:⁽⁵⁾ أن هذا إشارة إلى دليل إبراهيم في قوله: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُخِيءُ وَيُيَبِّئُ﴾ إلى آخر الآية، وبيانه أنه عليه السلام هو الذي يخرج الشمس من المشرق إلى المغرب بعد أفولها فهذا هو المراد بإخراج الخبء في السموات، وهو المراد في قول إبراهيم: ﴿لَا أُحِبُّ الْأَفْلِينَ﴾ [الأنعام: 76] ومن قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ﴾⁽⁶⁾ [البقرة: 258] ومن قول موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ وحاصل الكلام

(1) وأما العلم فيدل على ثبوته ساقط في (ب).

(2) على إخراج إلى قوله بالخفيات ساقط في (أ) ويوجد بدله: (عالمًا على الوجه المذكور فلما).

(3) كان: ساقط في (أ).

(4) ذلك لم يعلم من حالها ساقط (أ).

(5) والوجه الثاني ساقط في (ب).

(6) ومن قوله إلى المشرق ساقط من (ب).

يرجع إلى أن أقول الشمس وطلوعها يدلان على كونها تحت تدبير مدبر قاهر؛ فكانت العبادة لقاهرها ومدبرها والمتصرف فيها أولى.

وأما إخراج الخبء في الأرض فالمراد منه إخراج النطفة من بين الصلب والترائب، وهو المراد من قول إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُعْجِبُ وَيُعِيبُ﴾ ومن قول موسى عليه السلام: ﴿رَبُّكُمْ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾.

فإن قيل (1): أن إبراهيم وموسى عليهما السلام قدما دلائل النفس على دلائل الأفلاك، فإن إبراهيم عليه السلام قال أولاً: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُعْجِبُ وَيُعِيبُ﴾ ثم قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ﴾ وموسى عليه السلام قال أولاً: ﴿رَبُّكُمْ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ ثم قال: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ فلم عكس سليمان هذا الترتيب؟ فقدّم دلائل السموات على دلائل الأنفس فقال: ﴿الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قلنا: إن إبراهيم وموسى عليهما السلام كانت مناظرتهم مع من ادعى إلهية البشر فإن (نمرود وفرعون) كل واحد منهما كان يدعي الإلهية فلا جرم ابتداء إبراهيم وموسى عليهما السلام بإبطال إلهية البشر ثم انتقلا إلى إبطال إلهية الأفلاك والكواكب. وأما سليمان عليه السلام فإنه كانت مناظرته مع من يدعي إلهية الشمس؛ فإن الهدهد قال: ﴿وَجَدْتَهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [النمل: 24] فلا جرم ابتداء بذكر السموات ثم يذكر الأرضيات ثم إن سليمان عليه السلام لما تمم دلائل التوحيد قال بعده: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ والمراد به أنه لما بين افتقار السموات والشمس وسائر الكواكب إلى مدبر خالق ذكر بعد ذلك أن كل ما كان جسماً فهو مخلوق ومربوب سواء كان عظيماً أو صغيراً فقال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ فهذا مقام سليمان عليه السلام في تقرير دلائل التوحيد. أما المقام الثاني له عليه السلام في تقرير دلائل النبوة فهو قوله تعالى حكاية عنه: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوا أَنْفُسَكُمْ يَا أَيُّهَا عَرِيبًا قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَنَّكُمْ سُلَيْمِينُ﴾ (38) قَالَ عَفْرِتٌ مَنْ أَلَيْنَ أَنَا ءَايِكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (39) قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَايِكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: 38-40] واعلم أن كثيراً من الناس قالوا: ذلك الشخص الذي قال: ﴿أَنَا ءَايِكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: 40] هو غير سليمان وظنوا أن الكاف في قوله: ﴿ءَايِكَ﴾ خطاب مع سليمان عليه السلام وعلى هذا التقدير لا بد وأن يكون ذلك القائل غير سليمان عليه السلام إلا أن هذا ضعيف، بل

(1) فإن قيل إلى قوله ﴿يَأْتِيَنَّ الْمَلَأُ﴾ ساقط من (ب).

الصحيح عندنا أن الآتي بذلك العرش هو سليمان وذلك لأنه ﷺ إنما قال: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بَعْرِشَهَا﴾ على سبيل التحدي فقال العفريت: ﴿أَنَا أَيُّكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾ فقال سليمان ﷺ للعفريت: ﴿أَنَا أَيُّكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ فهذا الكلام قاله سليمان للعفريت تقريراً للتحدي به الذي ذكره أولاً وكسراً للعفريت وإظهاراً للعجز والذي يدل عليه وجوه:

[الأول]: (1) أن سليمان ﷺ قد ذكر دلائل التوحيد أولاً فافتقر بعد ذلك إلى تقرير دلائل النبوة مع بلقيس فإن سليمان ﷺ قد كلفها للإقرار بالتوحيد والنبوة، فلما ذكر دلائل التوحيد وجب عليه أن يذكر بعد ذلك النبوة وهذا معجز دال على النبوة فوجب جعله معجزاً لسليمان ﷺ حتى يتم الدليل.

[الثاني]: أن لفظة [الذي] موضوعة في اللغة للإشارة إلى شخص معين عند محاولة تعريفه بقصة معلومة والشخص المعروف بأن عنده علم الكتاب هو سليمان قال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَهَا سُلَيْمَانَ﴾ [الأنبياء: 79] وقال: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ [النمل: 16] فوجب انصرافه إليه، أقصى ما في الباب أن آصف أيضاً كان عالماً بالكتاب إلا أن سليمان كان أعرف به من آصف لأن الرسول أعرف بكلام الله من غيره فكان صرف هذا اللفظ إلى سليمان أولى.

[الثالث]: (2) أن إحضار العرش في تلك الساعة اللطيفة درجة عالية فلو حصل لآصف دون سليمان لاقتضى ذلك تفضيل آصف على سليمان وذلك غير جائز.

[الرابع]: أن سليمان لو افتقر في هذا العرض إلى آصف لاقتضى ذلك قصور حال سليمان في أعين الخلق.

[الخامس]: أن سليمان قال: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: 40] وظاهره يقتضي أن يكون ذلك المعجز قد أظهره الله بدعاء سليمان (3) فهذا ما يتعلق باشتغال سليمان ﷺ بتقرير التوحيد والنبوة. والله أعلم.

أما عيسى ﷺ فإنه أول ما تكلم شرح أمر التوحيد فقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ﴾ [مريم: 30] وشهادة حاله كانت دالة على صدق مقالته وهذه الكلمة الواحدة

(1) الأول في (ب) منها في (ب) سقط هذا الوجه إلى قوله الثاني.

(2) الثالث: سقط هذا الوجه والوجه الرابع من (ب).

(3) فهذا ما يتعلق إلى الحجة العاشرة ساقط في (ب).

كانت جامعة لكل المقاصد، أما دلالاته على التوحيد فلأن إنطاق الطفل في زمن الطفولة لا يتأتى إلا من الإله القادر على كل المقدورات.

وأما دلالتها على النبوة فلأن اختصاصه بهذا الفعل الخارق للعادة دال على النبوة. وأما دلالتها على براءة أمه عن طعن اليهود فلأنه لا يليق بحكمة الحكيم تخصيص ولد الزنا بهذه الرتبة العالية والدرجة الشريفة، ثم إنه عليه السلام بعد هذه الكلمة الوافية بتقرير كل الأغراض انتقل إلى بيان الشرائع فقال: ﴿ءَاتَلْنِي الْكُتُبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: 30].

وأما محمد صلى الله عليه وسلم فاعلم أن اشتغاله بتقرير دلائل التوحيد والنبوة والمعاد أظهر من أن يحتاج إلى مزيد تقرير فيه، وذلك لأنه عليه أفضل الصلاة والسلام كان مبتلى بالرد على جميع فرق الكفار (فالأول): الدهرية الذين كانوا يقولون: ﴿وَمَا يَهْدِيكُمْ إِلَّا إِلَهٌ ذَرَّتْ﴾ [الجاثية: 24] والله تعالى أبطل قولهم بأنه خالق الدهر والزمان و(الثاني): الذين ينكرون القادر المخترار والله أبطل قولهم بحدوث أنواع النبات وأصناف الحيوانات مع اشتراك الكل في تأثير الطبائع والأفلاك... و(الثالث): الذين أثبتوا شريكاً مع الله وذلك الشريك إما أن يكون علوياً أو سلفياً، والشريك العلوي فمنهم من أثبت ذلك الشريك هو الكوكب والشمس والقمر والله تعالى أبطله بدليل الخليل وهو قوله: ﴿لَا أُحِبُّ الْأَفْلَاقَ﴾ [الأنعام: 76] ومنهم من قال هو النور والظلمة والله أبطله بقوله: ﴿أَحْمَدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: 1] ومنهم من قال: «يزدان وأهرمن» والله أبطله بقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: 22] وبقوله: ﴿إِذَا لَابَتَّعُوا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: 42] وبقوله: ﴿وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: 91]. أما الشريك السفلي فمنهم من قال بإلهية المسيح والله أبطله بقوله: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ﴾ [النساء: 172] ومنهم من قال أنه هو الوثن والله أبطله بقوله: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ [النحل: 17]. و(الرابع): الذين طعنوا في أصل النبوة وحكى الله عنهم قولهم: ﴿أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: 94] ثم إن الله رد عليهم بقوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: 32]؟ و(الخامس): الذين طعنوا في التكليف تارة بأنه لا فائدة فيه والله تعالى رد عليهم بقوله: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: 7] وأخرى بأن الحق هو الخير وهوينا في صحة التكليف وأنه تعالى أجاب عنه بقوله: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: 23] و(السادس): الذين سلموا أصل النبوة وطعنوا في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم والقرآن مملوء من الرد عليهم، ثم إن طعنهم

كان من وجوه: تارة بالطعن في القرآن من حيث أنه مشتمل على ذكر خسائس الحيوانات من البعوضة والنملة والذبابه أجاب الله تعالى عنه بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي﴾ أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً ﴿[البقرة: 26] وتارة بأن القرآن سحر وشعر فأجاب الله عنه بقوله:

﴿قَاتُوا سُبُورًا مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: 23] وتارة بالتماس سائر المعجزات وهو قوله: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَنزِلَ لَنَا مِنَ السَّمَاءِ مَائِدَةً﴾ [الإسراء: 90] فأجاب الله تعالى عنه بقوله: بأن الدليل لما تم لم يبق للاقتراح في الزيادات فائدة وهو قوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَ رَسُولٍ﴾ [الإسراء: 93] وتارة بأن هذا القرآن نزل نجماً نجماً وذلك بطريق [التهمة] فأجاب الله عنه بقوله: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: 32] وتارة يحتمل أن يكون هذا القرآن من إلقاء الجن والشياطين كما في الشعر فأجاب الله تعالى عنه بقوله: ﴿هَلْ أُنثِيكُمْ عَلَىٰ مَنْ نَزَّلُ الشَّيْطَانُ ﴿٣٣﴾ نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء: 221-222] الذين أنكروا الحشر والنشر والقرآن مملوء من الرد عليهم. فثبت بمجموع ما ذكرنا أن الاشتغال بدليل التوحيد والنبوة حرفة جميع الأنبياء ﷺ.

[الحجة العاشرة]: على نهاية شرف هذا العلم⁽¹⁾ قوله تعالى: ﴿أَدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125] وليس المراد منه المجادلة في فروع الشرائع لأن من أنكر نبوته فلا فائدة في الخوض معه في تفاريع الأحكام ومن أثبت نبوته فلا يخالفه⁽²⁾ فعلمنا أن هذا الجدل المأمور به كان في تقرير مسائل الأصول وإذا ثبت هذا في حق الرسول ثبت في حق أمته لقوله تعالى حكاية عنه: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: 153] ولقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: 31] ولقوله ﷺ: «سنتي وسنة الخلفاء من بعدي».

[الحجة الحادية عشرة]:⁽³⁾ قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ﴾ [الحج: 8].

(1) هذا العلم في (ب) علم الأصول.

(2) في (ب) فإنه لا يخالفه.

(3) الحجة الحادية عشرة من هنا إلى نهاية الحجة الرابعة عشر ساقط في (ب).

وذلك يقتضي أن الجدل مع العلم لا يكون مذموماً وأيضاً حكى الله تعالى عن قوم نوح أنهم قالوا: ﴿يَنْتُوخُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا﴾ [هود: 32] ومن المعلوم أن ذلك الجدل كان في تقرير دلائل الأصول وإذا ثبت بهذه الآيات أن الجدل في تقرير الدلائل مستحسن ثبت أن المراد من قوله تعالى: ﴿مَا صَرَّفُوهُ لَكَ إِلَّا جِدْلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: 58] محمول على ذم الجدل في تقرير الباطل.

[الحجة الثانية عشرة]: أنه تعالى أمر بالنظر فقال: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانَ﴾ [النساء: 82] ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: 17] ﴿سَرَّيْهُمُ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [فصلت: 53] ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْفُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الرعد: 41] ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الاعراف: 185].

[الحجة الثالثة عشرة]: أنه تعالى ذكر التفكير في معرض المدح فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَيْلٍ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: 190] ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: 13] وأيضاً ذم المعرضين فقال:

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ آيَاتِهِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: 105] ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الاعراف: 179].

[الحجة الرابعة عشرة]: أنه تعالى ذم التقليد فقال حكاية عن الكفار: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ عَمَلٍ قَدِيمٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: 23] وقال: ﴿بَلْ نَسَبُوا مَا أَفَعْنَا عَلَيْهِمْ آبَاءَنَا﴾ [البقرة: 170] ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: 74] وقال: ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان: 42] وقال في والد إبراهيم عليه السلام: ﴿لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهَ لِأَرْجَمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِيئًا﴾ [مريم: 46] وذلك يدل على وجوب النظر وفساد التقليد.

[الحجة الخامسة عشرة]: أنه تعالى حكى عنهم أنهم سألوا محمداً ﷺ عن أمور: كقوله ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَجِيزِ﴾ [البقرة: 222] فذكر في هذه المواضع كذا وكذا إلا في آية واحدة وهي أنهم سألوا عن مسألة أصولية وهي قوله: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ اللَّجَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ [طه: 105] فيها هنا ذكر حرف التعقيب يعني يا محمد: اذكر هذا الجواب في الحال لأن هذه المسألة مسألة أصولية فلا يجوز تأخير الجواب عنها لأن ذلك يقدح في الإيمان. أما سائر المسائل فإنها فرعية فلا يكون تأخير الجواب عنها

إلى وقت الحاجة ضاراً فثبت بمجموع هذه الدلائل⁽¹⁾ وجوب تقديم الأصول على الفروع فلا جرم، قال الله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ [محمد: 19] فقدم الأمر بمعرفة التوحيد على الأمر بالاستغفار.

(1) الدلائل في (ب) البيانات.

الفصل الثاني: في فوائد لا إله إلا الله

(الفائدة الأولى): أن هذا الذكر لما كان أفضل الأذكار فالعدو لما جاءته المحنة فزع إليه والولي لما جاءته المحنة فزع إليه. أما العدو فلأن فرعون لما قرب من الغرق قال: ﴿ءَأْمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأْمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ [يونس: 90] والمعنى أنه لا إله يقدر على أن يجعل النار راحة كما في حق إبراهيم عليه السلام والماء عذاباً كما في حقي عليه السلام ﴿إِلَّا الَّذِي ءَأْمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ [يونس: 90]، وأما الولي فكما في حق يونس عليه السلام قال تعالى: في حقه: (1) ﴿فَتَكَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ والمعنى لا إله إلا أنت فإنك أنت الذي تقدر على حفظ الإنسان (2) حياً في بطن الحوت ولا قدرة لغيرك على هذه الحالة، فإن قيل كل واحد منهما نادى فلم قبل نداء أحدهما ولم يقبل نداء الآخر؟ (3). قلنا الفرق بينهما من وجوه:

الأول: أن يونس عليه السلام قد كان (4) سبقت له المعرفة مع هذه الكلمة فسبق المعرفة إعانة على قبولها منه، وأما فرعون فقد تقدمت له سبق الفكرة وذلك لأن الذي تقدم له في النداء إلى نفسه كما قال تعالى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى﴾ [١٢٣] فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿١٢٤﴾ [النازعات: 23 - 24] وأما يونس عليه السلام فقد كان ينادي الله تعالى: قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْمُوْتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْطُومٌ﴾ [القلم: 48] وأيضاً قال: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ [١٤٣] لَلَّيْتَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ [الصافات: 143 - 144] وهذا ينبهك على أن من حفظ الله في الخلوات يحفظه في الفلوات (5).

- (1) في حقه ساقط من (ب).
- (2) في حقه الإنسان في (ب) حفظ.
- (3) الآخر في (ب) الثاني.
- (4) (كان) ساقط في (ب).
- (5) حفظ إلخ في (أ) حفظ الله في الخلوات والفرحات يحفظه في الفلوات والترحات ولا يضيع عنده شيء.

الثاني: (1) أن يونس عليه السلام إنما ذكر هذه الكلمة مع الحضور فقال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾ وكان في الحضور والشهود، وأما فرعون فإنه قالها في الغيبة فقال: أنه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتَ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ فأحال العلم بحقيقة هذه الكلمة على الغير وأيضاً فقد قال تعالى: ﴿فَلَمَّ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا﴾ [المومن: 85] وفرعون قالها عند البأس والغرغرة فلم ينفعه إيمانه. نسأل الله العفو والعافية من كل لمة ومن مكر الله ونسأل الله أن يختم لنا بخير والمسلمين آمين.

الثالث: أن فرعون ذكر هذه الكلمة على سبيل التقليد لبني إسرائيل فقال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتَ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ وأما يونس عليه السلام فإنه إنما ذكرها على سبيل الاستدلال مع العجز والانكسار وذلك لأنه كان ينادي في الظلمات فحصل له العجز والانكسار بسبب تلك الظلمات، ثم قال بعده: ﴿سُبْحٰنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّٰلِمِينَ﴾ فحصل له العجز والانكسار بسبب الزلة وهي خروجه بلا إذن من الله تعالى فلما كانت هذه الكلمة مسبوقة بالعجز والانكسار ملحوقه بهما لا جرم صارت مقبولة لقوله: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾.

الرابع: أن فرعون إنما ذكر هذه الكلمة للمصلحة لا للعبودية بل لطلب الخلاص من الغرق بدليل قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَذْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ﴾ [يونس: 90] (2) ولو خلس لعاد [على] طغيانه وكفره كما قال تعالى عن أهل الكتاب: ﴿وَلَوْ رُدُّوْا لَعَادُوْا لِمَا نُهُوْا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكٰذِبُوْنَ﴾، وأما يونس عليه السلام فهو إنما (3) قالها لما حصل له من الانكسار بسبب التقصير في الطاعة والعبودية بدليل قوله بعده: ﴿سُبْحٰنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّٰلِمِينَ﴾ فظهر الفرق (4) من هذه الوجوه.

(الفضيلة الثانية): (5) لهذه الكلمة أنه تعالى أمرك بطاعات كثيرة من الصلوات والصيام والزكاة والحج ويستحيل أن يكون موافقاً لك في شيء منها، ثم أمرك بأن تقول لا إله إلا الله ثم إن الله تعالى يوافقك فيها فقال: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾

(1) (الثاني أو يونس) إلى نهاية الوجه الثالث ساقط من (ب).

(2) (ولو خلس) إلى (وأما يونس) ساقط من (ب).

(3) فهو إنما ساقط من (ب).

(4) فظهر الفرق من (ب) فضيلة الفرق.

(5) الفضيلة الثانية غير التعبير من الفائدة إلى الفضيلة هنا وفي ما بعده.

إلى قوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ والمقصود من التكرير (1) وجهان:

الأول: أن يكون العبد مواظباً على تكريرها طول عمره والثاني كأنه قال: (2) عبدي جعلت هذه الكلمة أول الآية وآخرها فاجعلها أنت أيضاً أول عمرك وآخره حتى تفوز بالنجاة والسلامة، وها هنا نكت:

(الأولى): أنه تعالى جعلك ثالث نفسه في هذه الآية وكفأك هذا فخراً.

(الثانية): أن يوسف عليه السلام أراد أن يتخذ وزيراً فجاءه جبريل عليه السلام فقال له (3): «إن الله يأمرك أن تتخذ فلاناً وزيراً لك» (4) الذي شهد لك بالبراءة من الفاحشة قد بلغ مبلغاً من العلم فاتخذه وزيراً فنظر إليه يوسف عليه السلام فكان في غاية الدناءة فسأل جبريل عليه السلام عن السبب فقال: إن له عليك حق الشهادة لأن هو الذي شهد: ﴿إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ﴾ الآية.

والإشارة إلى من شهد لمخلوق وجد وزارته في الدنيا فمن شهد الله (5) بالوحدانية والصمدية والبراءة من المعاييب والنقائص والأضداد والأنداد والجلال والتزويه جدير وحقيق بأن يجد مغفرته ورحمته في العقبي والله الحمد.

(الثالثة): في الحديث أن الله (6) ملائكته يؤمنون عند تأمين الإمام فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه (7) والإشارة إلى من وافق تأمينه تأمين الملائكة . . مرة صار مغفوراً له (8) فمن وافقت شهادته بوحدانية الله شهد الله ألف مرة أن يصير مغفوراً (9).

(1) من التكرير ساقط من (ب).

(2) قال في (ب) قيل .

(3) فقال له في (ب) وقال .

(4) الذي شهد إلى وزيراً ساقط من (ب).

(5) بالوحدانية إلى قوله والله الحمد في (ب) هكذا «بالتوحيد والجلال ألا يجد مغفرته ورحمته في العقبي» .

(6) لله إلخ في (ب) إن الله وملائكته يؤمنون .

(7) من ذنبه في (ب) يوجد (وما تأخر).

(8) مرة إلخ في (ب) مرة واحدة غفر له .

(9) شهد الله إلى مغفوراً في (ب) شهادة الملائكة آلاف مرة ألا يصير مغفوراً له .

(الرابعة)⁽¹⁾: أنه تعالى سَمَّاكَ وقت التخليق مختاراً فقال: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ وفي موضع الذنب جاهلاً: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ وفي موضع الرزق دابة: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ وفي موقف الطاعة أجيراً: ﴿فَيُؤَقِّبِهِمْ أَجْرَهُمْ﴾ وعند الشهادة عالماً: ﴿وَالْمَلٰٓئِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَالِمًا بِالْقِسْطِ﴾ ثم إن العلم أفضل الدرجات: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ والغرض منه التنبيه على الدرجات فأنت من حيث أتى خلقتك مختاراً فلك درجة موسى حيث قال: ﴿وَأَنَا أَخَّرْتُكَ﴾ وحين أذنبت فأنت جاهل والجهل عذر من بعض الوجوه، وحين تشتغل بطلب الرزق كالبهيمة لأنه تكفل برزقك فما هو مقدر لك يصل إليك وما ليس مقدرًا لك لا يصل إليك فكان الطلب عديم الفائدة فكان شبيهاً بأفعال البهائم وحين تشتغل بالعمل كنت كالأجير وكل ذلك درجات نازلة، أما حين تشتغل بالشهادة والتوحيد فأنت من العلماء الغائصين في لجة بحر التحقيق والتوحيد وبلغت الغاية القصوى في المنقبة والشرف كما قال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: 11].

الخامسة: قال تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينِكَ يٰمُوسَىٰ﴾ [طه: 17] وقعت هذه الإشارة على العصا وعلى اليد أما العصا فقوله: «تلك» وأما اليد فقوله: «بيمينك» وصارت العصا من قوة هذه الكلمة تلقف حبال السحرة وعصيتهم، وصارت اليد يداً بيضاء ﴿وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ وكلمة لا إله إلا الله وهي صفة وحدانيته وفردانيته وجلاله وعزته ألا يستقل بإفناء آثار العصيان عن قلب العبد وإنارة روحه بنور المعرفة والهداية.

السادسة: عصا موسى أخرج من الجنة فبطل عصي السحرة عندها فهذه الكلمة إنما ظهرت من شجرة العزة والربوبية والعظمة ونرجو أن يبطل الذنوب عندها.

السابعة: حكى⁽²⁾ عن الحجاج أنه أمر بقتل رجل فقال: لا تقتلني حتى تأخذ بيدي وتمشي معي⁽³⁾، فأجابه إليه فقال الرجل: بحرمة صحبتي معك في هذه الساعة

(1) والرابعة من هنا إلى السابعة حكى ساقط من (ب).

(2) حكى في (ب) روي.

(3) معي في (ب) توحد (في دارك) زيادة.

أن لا تقتلني، فعفا عنه. فهانها⁽¹⁾ وقعت للمؤمن⁽²⁾ صحبة مع الله الكريم في هذه الشهادة فترجو الله أن يغفر له⁽³⁾.

الثامنة⁽⁴⁾: وجد المؤمن بهذه الشهادة أبوة إبراهيم قوله تعالى: ﴿يَلِّئَةَ أَيْكُمُ إِبْرَاهِيمَ﴾ وأمومة أزواج النبي ﷺ: ﴿وَأَزْوَاجَهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: 6] وأخوة المؤمنين: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: 10] واستغفار الأنبياء: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: 19] واستغفار الملائكة: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [غافر: 7] وشفيعاً مثل محمد ﷺ: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي» ومشاركة الله في الاسم: ﴿الْمُؤْمِنُ الْمُحْسِنُ﴾ [الحشر: 23]؛ فدنبه ما أزال عنه هذه التشريفات أفترى أنه يخرج من رحمته عن رحمة الرحمن وأرحم الراحمين وأكرم الأكرمين؟!!

التاسعة: يحكى أنه عرض على (نصر بن) أحمد⁽⁵⁾ عسكره فكان يسأل عن أسماء الرجال فيجيبونه؛ فسأل واحداً عن اسمه فسكت لأنه كان سميّه ففطن لذلك فأعطاه خلعة جسيمة؛ فإذا كان حال سميّ الملك ذلك فكيف بمن كان سميّ ربّه تعالى؟

وفي الخبر: (يؤتى برجل يوم القيامة اسمه محمد فيقول الله تعالى له: أما استحيت أن عصيتني وأنت سمي حبيبي؛ فأنا أستحي أن أعذبك وأنت سمي حبيبي).
فإذا كان لا يعذب سميّ رسوله ﷺ فترجو من فضله أن لا يعذب سميّ نفسه وهو المؤمن.

الفضيلة الثالثة: لهذه الكلمة أن كل طاعة فإنه يصعد الملك بها فأما قوله:

- (1) فهانها في (ب) وهانها.
- (2) للمؤمن في (ب) للمؤمنين.
- (3) له في (ب) لهم.
- (4) الثامنة من هنا إلى (الفضيلة الثالثة لهذا الكلمة) ساقط من (ب).
- (5) هو نصر بن أحمد بن إسماعيل الساماني أبو الحسن الشهير بالسعيد ولد في بخارى سنة 293هـ-905م، تولى الإمارة بعد مقتل أبيه عام 301هـ إلا أن الرعية استصغروه وكاد ينفرط عقد إمارته إلا أنه ما لبث أن شبّ ذكياً مقداماً فجمع الجموع وقاتل الخصوم فأتسع سلطانه فشمّل خراسان وجرجان والري ونيسابور وتلك الأطراف. الأعلام ج 8/338 نقل عن ابن خلدون (4/336) وابن الوردي (1/275) وابن الأثير (8/130) وشذرات الذهب (20/331).

لا إله إلا الله فإنه يصعد بنفسه، دليله قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ ثم قال (1): ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: 10] أي العمل الصالح يرفعه الملك إلى الله تعالى (2) هكذا قال بعضهم (3).

الفضيلة الرابعة: قول (4) بعضهم: الحكمة في قوله تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴿٢﴾﴾ [التكوير: 1 - 2] أن يوم القيامة يتجلى نور (5) كلمة (لا إله إلا الله) فيمحق في ذلك التور (6) نور الشمس والقمر؛ لأن تلك الأنوار مجازية عرضية نور: (لا إله إلا الله) نور ذاتي، واجب الوجود لذاته والمجاز يبطل في مقابلة الحقيقة، فلا جرم يبطل كل نور في مقابلة هذا التور بل يبطل كل وجود في مقابلة هذه الوجود كما قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [الفصص: 88].

الفضيلة الخامسة (7): أن جميع الطاعات تزول يوم القيامة مثل الصلاة والصيام والحج: فإن التكليف الظاهرة تزول في عالم القيامة أما طاعة التهليل والتحميد فلا تزول عنهم، وكيف يمكن زوالها عنهم والقرآن يدل على أنهم مواظبون على الحمد؟ والمواظبة على الحمد توجب المواظبة على الذكر والتوحيد وإنما قلنا أنهم مواظبون على الحمد، لقوله تعالى حكاية عن أهل الجنة: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ [الزمر: 74] ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ [فاطر: 34] ﴿دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ﴾ [يونس: 10] ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ﴾ [الفصص: 70] فثبت أنهم مواظبون على الحمد والمواظبة على الحمد مواظبة على الذكر لا محالة فعلمنا أن جميع العبادات زائلة عن أهل الجنة إلا طاعة الذكر والتوحيد.

الفضيلة السادسة: ما روي في الآثار أنه إذا قال العبد: لا إله إلا الله فإنه

- (1) ثم قال ساقط من (أ).
- (2) تعالى في (ب) عز وجل.
- (3) هكذا قال بعضهم ساقط من (ب).
- (4) قوله في (ب) قال.
- (5) نور ساقط من (ب).
- (6) النور ساقط من (ب).
- (7) الفضيلة الخامسة إلخ ساقطة من (ب).

سبحانه⁽¹⁾ يعطيه من الثواب بعدد كل كافر وكافرة على وجه الأرض⁽²⁾. قال المحقق: السبب في ذلك أنه كما قال هذه الكلمة فإنه قد ردّ على كل كافر وكافرة تثبت لله ضدّاً ونذّاً وشريكاً فلا جرم يستحق الثواب بعددهم.

الفضيلة السابعة⁽³⁾: قال السدي⁽⁴⁾ في قوله تعالى: ﴿حَمْدَ اللَّهِ عَسَقَ﴾ الحاء حلمه وحكمه وحجته والميم ملكه ومجده والعين عظمته وعلمه وعزّه وعدله والسين سناؤه وسره والقاف قهره وقدرته، يقول الله تعالى: بحلمي وحكمي وحجّتي وملكي ومجدي وعظمتي وعزّتي وعلمي وعدلي وسناني وسري وقدرتي وقهري لا أعذب في النار من قال مرة: لا إله إلا الله.

الفضيلة الثامنة: قيل: إذا كان آخر الزمان فليس لشيء من الطاعات فضل كفضل كلمة: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾؛ لأن صلواتهم وصيامهم يشوبهما الزياء والسمعة وصدقاتهم يشوبها الحرام ولا إخلاص في شيء منها وأما كلمة: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ فهي ذكر الله، والمؤمن لا يذكرها إلا عن صميم القلب.

الفضيلة التاسعة: الأحاديث الواردة في فضل هذه الكلمة فالأول: قوله عليه السلام: «أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله»⁽⁵⁾، والثاني: عن ابن عمر أنه عليه أفضل السلام قال: «ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في الموت ولا عند النشر»⁽⁶⁾، وكأني أنظر إلى أهل لا إله إلا الله عند الصيحة ينفضون شعورهم من التراب ويقولون: الحمد لله أذهب عنا الحزن»⁽⁷⁾.

(1) سبحانه ساقط من (أ).

(2) لم نجد هذا الحديث في المراجع التي بحوزتنا.

(3) الفضيلة السابعة من هنا إلى قوله، والثاني عن ابن عمر ساقط من (ب).

(4) هو إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير القرشي (أبو محمد) مفسر سكن الكوفة، معجم المؤلفين (جـ 2/ 276) وأعيان الشيعة (جـ 9/ 12-17).

(5) رواه الترمذي (3380 و3443) وابن ماجه (3800) وابن حبان (834 موارد) والخرائطي في فضيلة الشكر (2/ 2) والحاكم (1/ 503) والبيهقي في شرح السنة (1268).

(6) النشر: في (ب) النشور.

(7) رواه الطبراني في الأوسط (ص 436-437 مجمع البحرين) وابن عدي في الكامل (4/ 1582) والخطيب في تاريخ بغداد (1/ 266 و10/ 265) من حديث ابن عمر ورواه الخطيب في تاريخ بغداد (1/ 266 و10/ 265) من حديث ابن عمر ورواه الخطيب (5/ 305 من حديث ابن عباس ولا يصح).

والثالث⁽¹⁾: يروى أنّ المأمون لما انصرف من المرو يريد العراق واجتاز نيسابور وكان على مقدمته علي بن موسى الرضا فقام إليه قوم من المشايخ وقالوا: نسألك بحق قرابتك من رسول الله ﷺ أن تحدثنا بحديث ينفعنا؛ فروى عن أبيه عن آبائه عن النبي ﷺ عن جبريل عن الله تعالى أنه قال: «لا إله إلا الله حصني، من دخل حصني أمن من عذابي»⁽²⁾.

والرابع: روى ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «يفتح الله أبواب الجنة، وينادي مناد من تحت العرش أيتها الجنة وكل ما فيك من النعم لمن أنت فتتادي الجنة وما فيها: نحن لأهل لا إله إلا الله ونشتاق إلى أهل لا إله إلا الله ولا نطلب إلا أهل لا إله إلا الله ولا يدخل علينا إلا أهل لا إله إلا الله، ونحن محرمون على من لم يقل لا إله إلا الله ومن لم يؤمن بلا إله إلا الله، وعند هذا تقول النار وكل ما فيها من العذاب: لا يدخلها إلا من أنكر لا إله إلا الله ولا أطلب إلا من كذب بلا إله إلا الله وأنا حرام على من قال: لا إله إلا الله ولا أمتلى إلا بمن جحد لا إله إلا الله وليس غيظي إلا على من أنكر لا إله إلا الله قال: فتجيء رحمة الله ومغفرته ويقولان: أنا لأهل لا إله إلا الله وناصر لمن قال لا إله إلا الله ومحّب لمن قال لا إله إلا الله ومتفضّل على من قال لا إله إلا الله ويقول الله تعالى: أبحث الجنة لمن قال لا إله إلا الله وحرمت النار على من قال لا إله إلا الله وأغفر كل ذنب لمن قال لا إله إلا الله ولا أحجب رحمة ومغفرة عمّن قال لا إله إلا الله وما خلقت الجنة إلا لأهل لا إله إلا الله فلا (نلحظ)⁽³⁾ أهل لا إله إلا الله إلا بما يوافق لا إله إلا الله»⁽⁴⁾.

ورواه ابن عساكر من حديث علي ابن أبي طالب وفيه عبد الله أحمد بن عامر. قال الحافظ العراقي في تخريج الإحياء رواه الحاكم في تاريخ نيسابور وأبو نعيم في الحلية، والقضا علي في مسند الشهاب من رواية علي بن موسى عن آبائه وهو ضعيف جداً قال ابن طاهر في الكشف عن أخبار الشهاب رواية عن علي الرضي في الحلية أبو الصلب الهروي متفق على ضعفه ورواية عن علي عند القضا عن أحمد بن علي بن حدة متهم بالوضع، وأما قول صاحب الفردوس أن هذا الحديث ثابت مشهور فمردود عليه. انتهى.

- (1) والثالث إلخ من هنا إلى قوله: والسادس عن أنس إلخ ساقط من (ب).
- (2) . . . رواه القضا علي في مسند الشهاب (1451) من رواية علي بن موسى الرضي عن آبائه وهو ضعيف جداً.
- (3) [نلحظ] في الأصل: (نلحظ).
- (4) . . . لم نجد هذا الحديث في المراجع التي بحوزتنا.

والخامس: قال عليه السلام: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله»⁽¹⁾ قال بعض العلماء: إن الله جعل العذاب عذابين أحدهما السيف في يد المسلمين والثاني عذاب الآخرة فالسيف في غلاف يُرى، والنار في غلاف لا يُرى، فقال تعالى لرسول الله ﷺ: من أخرج لسانه من الغلاف (المرئي) وهو الفم فقال: لا إله إلا الله أدخلنا السيف في الغمد الذي يرى، ومن أخرج لسان القلب من الغلاف الذي لا يرى وهو السرّ فقال له لا إله إلا الله أدخلنا سيف عذاب الآخرة في غمد الرّحمة حتى يكون واحد بواحد ولا ظلم ولا جور.

السادس: عن أنس ؓ عن النبي ﷺ: «من قرأ عند منامه: ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: 19] خلق الله سبعين ألف خلق يستغفرون له يوم القيامة قال⁽²⁾: ﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾».

السابع⁽³⁾: عن علي بن أبي طالب ؓ قال ﷺ: «إن فاتحة الكتاب وآية الكرسي و﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ و﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ﴾ إلى قوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: 26-27] معلقات، ما بينهن وبين الله حجاب»، يقول الله تعالى: بي حلفت لا يقرأكن أحد من عبادي إلا جعلت الجنة مثواه على ما كان فيه ولأسكنته حظيرة القدس ولأنظرنّ إليه بعين الرحمة كل يوم ستين مرة ولقضيت في كل يوم سبعين حاجة أداها المغفرة وأحفظه من كل عدو وحاسد».

الثامن: قال⁽⁴⁾ أبو سعيد الخدري: قال ﷺ: «ما من عبد يقول أربع مرات: اللهم إني أشهدك وكفى بك شهيداً وأشهد حملة عرشك وملائكتك وجميع خلقك أنني

(1) . . . رواه مسلم (20 و21) من حديث أبي هريرة وكذلك البخاري (3/262 و6/111 و12/275 و13/250 فتح الباري الطبعة السلفية) والبخاري (1/497 و496) من حديث أنس ومسلم (21) من حديث جابر (ومسلم 22) من حديث ابن عمر ورواه جمع من الصحابة من طرق كثيرة.

(2) قال في (ب) ثم قال.

(3) السابع إلخ ساقط من (ب).

(4) قال في (ب) روى.

(5) قال ﷺ في (ب) قال ﷺ.

أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأشهد⁽¹⁾ أن محمداً عبدك ورسولك إلا كتب الله له به صكاً بالعتق عن النار⁽²⁾.

التاسع⁽³⁾: عن ابن عمرو قال: قال النبي ﷺ: «يُجاء برجل من أمتي يوم القيامة على رؤوس الخلائق ينشر عليه تسعة وتسعون سجلاً كل سجل مثل مد البصر فيقال له: أتتكر من هذا شيئاً؟ أظلمك الحافظون؟ فيقول: لا يا رب فيقال له: ألك عذر؟ فيقول: لا يا رب فيقول الله تعالى: إن لك عندي وديعة وإنه لا ظلم عليك اليوم فتخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول الله تعالى: لا ظلم اليوم فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة فلا ثقل مع اسم الله تعالى⁽⁴⁾».

العاشر: عن أنس قال: قال النبي ﷺ: «ما زلت أشفع إلى ربي فيشفعني حتى أقول: يا رب شفّعني فيمن قال لا إله إلا الله فيقول الله تعالى: هذه ليست لك يا محمد إنما هذه لي وعزتي وحلمي ورحمتي لا أدع في النار أحداً قال لا إله إلا الله⁽⁵⁾».

(1) وأشهد ساقط من (ب).

(2) ... لم نجد الحديث في المراجع التي بحوزتنا.

(3) التاسع إلخ من هنا إلى قوله: الأول أسلم نصراني إلى ساقط من (ب).

(4) رواه أحمد (2/312 و221)، والترمذي (2639) وحسنه، وابن ماجه (4300)، وابن حبان (2524)، والحاكم (1/6 و529) وصححه على شرط مسلم، وأقره الذهبي ورواه الخطيب في الموضوع (2/188 و189)، والبغوي في شرح السنة (828).

(5) رواه أبو يعلى (2786)، وابن أبي عاصم في السنة (828) وهو في حديث أنس الطويل في الشفاعة في الصحيحين.

[تفسير كلمة لا إله إلا الله]

واعلم أن أهل العرفان ذكروا في تفسير لا إله إلا الله وجوهاً:

«الأول»: قال ابن عباس: لا إله إلا الله لا نافع ولا ضار ولا معز ولا مذل ولا معطي ولا مانع إلا الله.

«الثاني»: لا إله يرجى فضله ويخاف عدله ويؤمن جوره فيوكل رزقه ويترك أمره ويسأل عفوه ويرتكب نهيه ولا يحرم فضله إلا الله الذي هو رب المؤمنين وغفار المذنبين وملجأ التائبين وستار المغبونين وغاية رجاء الراجين ومنتهى مقصد العارفين.

«الثالث»: قول العبد لا إله إلا الله إشارة إلى المعرفة والتوحيد بلسان الحمد والتشديد إلى الملك المجيد.

فإذا قال العبد: لا إله إلا الله فالمعنى لا إله له الآلاء والنعماء والقدرة والبقاء والعظمة والسناء والعز والثناء والسخط والرضاء إلا الله رب العالمين وخالق الأولين والآخريين وديان يوم الدين.

«الرابع»: لا إله للرجبة ولا إله للرهبة إلا الله الذي هو كاشف الكربة. عن عمران بن الحصين: قال عليه السلام لأبي حصين: «كم تعبد اليوم من إله؟» فقال: أعبد ستة أو سبعة في الأرض وواحد في السماء، فقال عليه السلام: «وأيهم تعبد برغبتك ورهبتك؟» فقال: الذي في السماء فقال عليه السلام: «فيكيفك إله السماء» ثم قال: «يا حصين لو أسلمت علمت كلمتين تنفعانك» فأسلم حصين، ثم قال: يا رسول الله علمني هاتين الكلمتين فقال عليه السلام: «قل اللهم ألهمني رشدي واغفر لي واعصمني من شر نفسي».

«الخامس»: قيل: قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾ [آل عمران: 18] يشهد الله تعالى في عوالم القدس وحظائر الجلال وسرادقات الصمدية والملائكة يشهدون بهذه الشهادة في السموات وأولو العلم يشهدون بهذه الشهادة في الأرضين.

وقال جعفر الصادق⁽¹⁾ وقد سأله عن هذه الآية: أن الله يشهد لنفسه بالفردانية والصمدية والأحادية والأزلية والأبدية ثم خلق الخلق فشنغلهم بعبادة هذه الكلمة وذلك لأن شهادة الحق لنفسه حق وشهادتهم له رسم فكيف يستوي الرسم مع الحق؟

ومن أعلى المراتب طاقة تجلّي نور رب الأرباب. وقال سعيد بن جبير: كان حول الكعبة ثلاث مائة وستون صنماً فلما نزل ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾ خرت الأصنام سجداً حول الكعبة. وأما خاتمة المجلس ففيها وجوه:

«الأول»: أسلم نصراني ببغداد أيام الشبلي فقال الشبلي: ما سبب إسلامك؟ فقال: كنت في حال النصرانية أكرم دين النصرانية ورزقت دين الإسلام ببركة إكرام ذلك الدين، فصاح الشبلي وقال: إذا كان من يكرم الدين الباطل والله⁽²⁾ يرزقه الدين الحق، فمن يكرم الدين الحق ألا يرزقه الله الرحمة والغفران؟

«الثاني»⁽³⁾: يحكى أن رجلاً كان واقفاً بعرفات وكان في يده سبعة أحجار فقال: يا أيها الأحجار السبعة اشهدوا لي أنني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. فنام فرأى في المنام كأن القيامة قد قامت وحوسب ذلك الرجل فوجب له النار، فلما ساقوا به إلى باب من أبواب جهنم جاء حجر من تلك الحجارة السبعة وألقت نفسها على ذلك الباب فاجتمعت ملائكة العذاب على رفعها فما قدروا ثم سبق إلى الباب الثاني فكان الأمر كما في الأول وهكذا الأبواب السبعة فسيق به إلى العرش فقال الله سبحانه: «عبيد أشهدت الأحجار فلا يضيع حقك وأنا شاهد على شهادتك على توحيدي ادخل الجنة». فلما قرب من باب الجنان فإذا أبوابها مغلقة فجاءت شهادة أن لا إله إلا الله وفتحت الأبواب ودخلها الرجل.

- (1) هو جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ولد عام 80هـ وتوفي عام 148هـ، يعد من أجلاء التابعين وكان له منزلة رفيعة في العلم أخذ منه جماعة من العلماء منهم الإمام أبو حنيفة والإمام مالك، كان صريحاً وجريئاً في مقابلة الظلم والظالمين صادقاً في كلامه لذا لقب بالصادق. تاريخ بغداد (جـ 7/162)، وفيات الأعيان (جـ 1/105)، جمهرة الأولياء (جـ 2/75).
- (2) والله في (أ) فالله. والشبلي هو أبو بكر بن جحد الشبلي ولد في بغداد سنة 249هـ صحب أبا القاسم الجنيد، ومن عاصره من المشايخ وصار وحيد عصره علماً وتصوفاً وفقهاً تفقه على مذهب الإمام مالك، مات ببغداد عام 336هـ وقبره اليوم مزار معروف. جمهرة الأولياء (جـ 2/152).
- (3) الثاني إلخ من هنا إلى قوله السابع سأل إلخ ساقط من (ب).

«الثالث»: رُئي يزيد بن هارون⁽¹⁾ في المنام بعد موته فقالوا له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي قلنا: بالحديث؟ قال: لا، قلنا: بالعلم أو بالزهد؟ قال: لا، قلنا: فيمِ ذاك؟ قال: أتاني ملكان مهيبان فقالا لي: من ربك؟ ومن نبيك وما دينك؟ فقلت: أمثلي يسأل عن هذا وقد كنت أدعو الخلق إليه منذ سبعين سنة؟ فانصرفا عني.

«الرابع»: زاد الماء في بغداد حتى أشرفت على الغرق فقال بعض الصالحين: رأيت في بعض تلك الليالي كأني واقف على طرف وأنا أقول: لا حول ولا قوة إلا بالله غرقت بغداد، فجاء إنسان حسن الصورة وكنت أعلم أنه ملك وجاء آخر من ناحية أخرى فقال أحدهما للآخر: ما الذي أمرت به؟ قال: أمرت بتغريق بغداد ثم نُهيت عنه فقال: ولم؟ قال: رفعت ملائكة الليل أن البارحة افتضت ببغداد سبعمئة فرج حرام فغضب الله وأمرني بتغريقها، ثم رفعت ملائكة النهار في صبح هذا اليوم سبعمئة أذان وإقامة فغفر الله لهؤلاء بهؤلاء، قال صاحب الرؤيا: فانتبهت وجئت إلى دجلة فإذا الماء قد نقص.

«الخامس»: قال بعضهم: لا إله إلا الله محمد رسول الله أربعة وعشرون حرفاً وساعات النهار والليل كذلك فكأنه قيل: كلّ ذنب أذنبته من الصغيرة والكبيرة والسرّ والجهر والخطأ والعمد والقول والفعل في هذه الساعات فهي مغفورة بهذه الحروف والكلمات، وأيضاً قول: لا إله إلا الله محمد رسول الله سبع كلمات وللعبد سبعة أعضاء وللنار سبعة أبواب كما قال تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ [الحجر: 44] وكل كلمة من هذه الكلمات السبع يغلق باباً من الأبواب السبعة على عضو من الأعضاء السبعة وقيل أيضاً: أن كلمة لا إله إلا الله اثنا عشر حرفاً فلا جرم له اثنتا عشرة فريضة ستة ظاهرة وستة باطنة، أما الظاهرة فالطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد، وأما الباطنة فالتوكل والتفويض والصبر والرضى والزهد والتوبة.

«السادس»: سأل الشبلي رجل وقال: لم تقول الله ولا تقول لا إله إلا الله؟ فقال: لأن الصديق أعطى ماله كله فلم يبق له شيء فتجلل بكساء بين يدي النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: «ما خلقت لعيالك يا أبا بكر؟» قال: الله. فكذا أنا أقول: الله، فقال

(1) هو يزيد بن هارون بن زاذان بن ثابت السلمي بالولاء الواسطي أبو خالد، كان من حفاظ الحديث الثقات كان واسع العلم بالدين، ذكياً، كبير الشأن أصله من بخارى ومولده ووفاته بـ(واسط) قدر من كان يحضر مجلسه بسبعين ألفاً. تاريخ بغداد (14/337)، وطبقات الشعرائي (1/74).

السائل: أريد أعلى من هذا فقال الشبلي: أستحي من ذكر كلمة النفي في حضرته والكل نوره، فقال السائل: أريد أعلى من هذا فقال الشبلي: أخشى أن أموت عند الإنكار فلا أصل إلى الإقرار. قال السائل: أريد أعلى من هذا فقال الشبلي: قال الله لرسوله: ﴿قُلِ اللَّهُ تَمَّ ذَرَهُمْ فِي حَوْضِهِمْ يَلْبُونَ﴾ [الأنعام: 91] فقام السائل وزعق زعقة، فقال الشبلي: الله. فزعق ثانياً فقال الشبلي: الله فزعق ثالثاً ومات فاجتمع أقرباء الفتى وتعلقوا بالشبلي وادعوا عليه الدم وحملوه إلى الخليفة فأذن لهم فدخلوا عليه وادعوا الدم فقال الخليفة للشبلي: ما جوابك؟ فقال: روح حنت فرنت وسمت فصاحت فدعيت فسمعت فعلمت فأجابت فما ذنبي؟
فصاح الخليفة وقال: خلّوا سبيله.

«السابع»: سئل بعض العلماء عن قوله تعالى: ﴿وَيَبِّرُ مَعْطَلَةً وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: 45] فقال: البئر المعطلة قلب الكافر معطلة⁽¹⁾ من قول لا إله إلا الله، والقصر المشيد قلب المؤمن معمور بقوله لا إله إلا الله.

«الثامن»⁽²⁾: جاءت امرأة إلى بعض أكابر الصوفية بقارورة من زيت وقالت: يا شيخ أحب أن تصلح قناديل المسجد من هذا الزيت فقال الشيخ: أيما أحب إليك نور يصعد إلى السقف أو نور يصعد إلى العرش.

فقالت المرأة: بل نور يصعد إلى العرش، فقال الشيخ: إذا صببت هذا الدهن في القناديل صعد النور إلى السقف وإذا صببته في طعام الفقراء صعد النور إلى العرش، ثم أخذه وأصلح به طعاماً للفقراء فلما أكلوا قال: قولوا من صدق وإخلاص: لا إله إلا الله واجعلوا ثوابها لتلك المرأة.

«التاسع»: روي أن أمية بن خلف الجمحي⁽³⁾ كان ذا مال وأولاد وكان له صنم

(1) معطلة في (ب) معطل.

(2) الثامن إلخ من هنا إلى قوله العاشر قال بعضهم ساقط من (ب).

(3) هو أمية بن خلف بن وهب من بن لؤس أحد جبابرة قريش في الجاهلية ومن ساداتهم أدرك الإسلام ولم يسلم وهو الذي عذب بلالاً الحبشي في بداية ظهور الإسلام أسره عبد الرحمن بن عوف يوم بدر فرآه بلال فصاح بالناس يجرضهم على قتله، سيرة ابن هشام (2/52)، والكامل لابن الأثير (2/48)، وعيون الأثر (1/259).

يعبده من دون الله وكان له اثنا عشر مملوكاً ولم يكن أحب إليه من بلال وكان (الحب) له بيت الصنم فسجد لله بلال في بيت الصنم فكان يقول: أحد، أحد، فبلغ ذلك إلى النبي ﷺ فسُرَّ بذلك وبلغ هذا الخبر إلى أمية فقال: يا بلال أتسجد لربِّ محمد؟ فقال: نعم أسجد لله الكبير المتعال، فوثب إليه أمية يضربه ويعذبه، فلما كان نصف النهار جعله عرياناً وطلّى عليه الزيت وأقامه في الرمضاء يجزّه الصبيان وكان إذا أصابته الشمس وحرّ الرمضاء يقول: أحد، أحد، فمرّ عليه أبو بكر فقال: يا أمية إلى كم تعذب هذا الغلام؟ فقال: اشتريته بمالي فأنا أحقّ بعذابه، فقال: لا كرامة لك تعذب عبداً قال لا إله إلا الله، فاخصمنا فقال أبو بكر: لي غلام أبيض على دينك فأنا اشتريته بذلك العبد وعشر أواق من الذهب، وفي رواية أخرى بأوقيتين، فقال: لو طلبت مني هذا الغلام بدرهمين بعته منك، فقال أبو بكر: لو ساومنتي بكل ما أملكه لاشتريته، فأخذ بيد بلال وستره بردائه ومسح وجهه من التراب وجاء النبي ﷺ وقال: «يا معشر قريش اشهدوا أنه حرّ لوجه الله تعالى» فأنزل الله تعالى في شأنه: ﴿وَأْتَلِ إِذَا يَشَى﴾ [الغاشية: 1].

«العاشر»: قال بعضهم: الحكمة في سؤال الملكين أن الملائكة طعنت في بني آدم بقولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: 30] فقال الله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 30] فإذا مات المؤمن بعث الله إلى قبره ملكين فيقولان له: من ربك؟ وما دينك؟ فيقول: الله ربي والإسلام ديني فيأمرهما الله ويقول: «اشهدا بين الملائكة⁽¹⁾ بما سمعتما لأن أقل الشهود اثنان» ثم يقول الله تعالى: «ملائكتي انظروا إلى عبدي وقد أخذت روحه وماله فماله لعدوّه وزوجه⁽²⁾ في حجر غيره وضيعته في يد غيره، ثم إن الملائكة سألوه في بطن الأرض فلم يذكر عن شيء إلا عن توحيدي وتنزيهي لتعلموا أنني أعلم ما لا تعلمون». وأيضاً قيل⁽³⁾: الحكمة في هذا السؤال أن الله قال في الابتداء: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف: 172] فشهد الله عليهم فلما جاؤوا⁽⁴⁾ إلى الدنيا شهدوا بالتوحيد وشهد عليهم الأنبياء والمؤمنون بذلك فإذا مات⁽⁵⁾

- (1) بين الملائكة ساقط من (أ).
- (2) زوجه في (ب) زوجته.
- (3) قيل في (ب) قالوا.
- (4) جاءوا في (ب) أخرجهم.
- (5) المؤمن ساقط من (ب).

المؤمن وأدخل⁽¹⁾ القبر سأله الملكان عن هذه الشهادة فيشهد بها في قبره فيسمع تلك الشهادة، فإذا جاء يوم القيامة جاء إبليس وأراد أن يأخذه ويضيفه إلى حزبه⁽²⁾ ويقول: هذا من شيعتي لأنه⁽³⁾ تبعني في المعاصي فيقول الله تعالى: لا سلطان لك عليه لأنني سمعت منه التوحيد في الابتداء، والأنبياء⁽⁴⁾ والرسل سمعوا منه ذلك في الوسط، والملائكة سمعوا منه ذلك في الانتهاء، فكيف يكون من شيعتك؟ وكيف يكون لك عليه سلطان؟ اذهبوا به إلى الجنة.

«الحادي عشر»⁽⁵⁾: قال بعضهم: حضرت مجلس يحيى بن معاذ الرازي⁽⁶⁾ فقرأ رجل قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا﴾ [طه: 44] فبكى يحيى وقال: هذا رفقك بمن يقول: «أنا الإله» فكيف رحمتك بمن يقول: أنت الإله؟ هذا رفقك بمن يعاديك فكيف رفقك بمن والاك ويناديك، هذا رفقك بمن يقول أنا الرب، فكيف رفقك بمن يقول أنا العبد وأنت الرب، إلهي قول لا إله إلا الله يهدم كفر خمسين سنة فما يصنع بذنوب ساعة؟

«الثاني عشر»: قال بعضهم في تفسير قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا﴾ معنى ذلك القول اللين أن يقول موسى وهارون لفرعون: يا فرعون وجدت عمرك أربعمئة سنة تقول: أنا ربكم الأعلى فأتيت بقول منكر ما ذكره أحد من الكفار قبلك فقل مرة واحدة: أنت الرب الأعلى ليغفر لك كفر أربعمئة سنة ويطهرك عن نجاسة الشرك والكفر.

«الثالث عشر»: سئل الشبلي عن أرجى آية في القرآن فقال قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: 38] والله تعالى أطلق للكفار⁽⁷⁾ دخول الجنة بذكر الكلمة مرة واحدة، أترى أن من واظب عليها⁽⁸⁾ طول

(1) وأدخل من (ب) ودخل.

(2) ويضيفه إلى حزبه ساقط من (ب).

(3) لأنه ساقط من (ب).

(4) والأنبياء في (أ) والانتهاء.

(5) الحادي عشر من هنا إلى الثالث عشر ساقط من (ب).

(6) هو يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي، (أبوزكريا واعظ، زاهد لم يكن له نظير في عصره من أهل الري أقام ببلخ ومات في نيسابور عام 258، جمهرة الأولياء وأعلام التصوف (2/141)، والأعلام للزركلي (9/218).

(7) للكفار في (ب) للكافر.

(8) عليها في (ب) على هذه الكلمة.

عمره كيف يمنع⁽¹⁾ من دخول الجنة وهو طاهر عن نجاسة الشرك⁽²⁾؟

-
- (1) يمنع في (ب) يمنعه .
(2) وهو طاهر عن نجاسة الشرك ساقط من (ب) .

الفصل الثالث:

في أسماء كلمة التوحيد⁽¹⁾

الاسم الأول: التوحيد: وذلك لأنها تدل على نفي الشرك على الإطلاق وفائدة قولنا على الإطلاق أنه تعالى قال: ﴿وَاللَّهُ كُورٌ إِلَهٌُ وَجِدٌ﴾ [البقرة: 163] أمكن أن يخطر ببال أحد أن يقول: هَبْ أن إلهنا واحد فلعلَّ إله غيرنا مغاير لإلهنا والله تعالى أزال هذا التوهم ببيان التوحيد المطلق فقال: لا إله إلا هو، وذلك لأن قولنا لا رجل يقتضي نفي الماهية ومتى انتفت الماهية انتفى جميع أفرادها إذ لو حصل فرد من أفراد الماهية لحصلت تلك الماهية، لأن كل فرد من أفراد الماهية مشتمل على تلك الماهية وإذا وجدت تلك الماهية، فذلك يناقض نفي الماهية فثبت أن قولنا لا رجل في الدار تفيد النفي العام الشامل، فإذا قيل بعد ذلك إلا زيد أفاد التوحيد التام الكامل. ثم أعلم أن لهذه الكلمة ثمرتين:

إحدهما: أن جوهر الإنسان خلق في الأصل مشرفاً مكرماً قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: 70] وإذا كان الأصل فيه كونه مكرماً كان كونه مطهراً على وفق الأصل، فكونه منجساً على خلاف الأصل ثم أنا إذا رأينا الإنسان متى أشرك صار نجساً بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: 28] وإذا كان الشرك يقتضي كونه نجساً مع أن ذلك على خلاف الأصل فكونه موحداً يقتضي كونه طاهراً أولى لأنه على وفق الأصل، وإذا ثبت أن الموجود كامل في كونه طاهراً وجب أن يكون من خواص الله كقوله: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ [النور: 26].

الثانية: أن الشرك سبب لخراب العالم بدليل قوله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ ﴿١٥﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ [مريم: 90-91] وإذا

(1) الفصل الثالث إلخ من هنا إلى الحجة الأولى ما روى أن رجلاً ساقط من (ب).

كان الشرك سبباً لخراب العالم وجب أن يكون التوحيد سبباً لعمارة العالم، ضرورة كون الضدين مختلفين في الحكم، وإذا ثبت أن كلمة التوحيد سبب لعمارة العالم فأولى أن يكون لعمارة القلب الذي هو محل الوجدانية و لعمارة اللسان الذي هو محل ذكر الوجدانية وذلك يناسب عفو الله تعالى عن أهل التوحيد.

الاسم الثاني: أن هذه الكلمة تسمى كلمة الإخلاص؛ وكان معروفاً الكرخي⁽¹⁾ رحمه الله يقول: يا نفس أخلصي تتخلصي، ثم التحقيق فيه إن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره فإذا صفى عن شوبه وخلص سمي خالصاً، وسمي الفعل المصفي إخلاصاً ولا شك أن كل من أتى بفعل اختياري فلا بد له في ذلك الفعل من غرض، فمهما كان الغرض في الفعل واحداً سمي ذلك الفعل إخلاصاً، فمن تصدق وكان غرضه محض الرياء فهو غير مخلص ومن كان غرضه محض التقرب إلى الله تعالى فهو مخلص، ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الإخلاص بتجريد قصد التقرب إلى الله تعالى عن جميع الشوائب كما أن الإلحاد عبارة عن الميل ولكن خصصه العرف بالميل عن الحق، وإذا عرفت هذا فنقول الباعث على الفعل إما أن يكون روحانياً فقط وهو الإخلاص أو شيطاناً فقط وهو الرياء أو مركباً منهما وهو على ثلاثة أقسام لأن الطرفين إما أن يكونا على السوية أو يكون الروحاني أقوى أو يكون النفساني أقوى. القسم الأول وهو أن يكون الباعث رحمانياً فقط وهذا لا يتصور إلا من محب لله مستغرق الهم به بحيث لم يبق لحب الدنيا في قلبه مقرر. حتى لا يحب الأكل والشرب بل يكون رغبته فيه في قضاء الحاجة من حيث أنه ضرورة الجبلة فلذلك لا يشتهي الطعام لأنه طعام بل لأنه يقويه على عبادة الله تعالى، فمثل هذا الشخص لو أكل أو شرب أو قضى حاجته كان خالص العمل في جميع حركاته وسكناته فلو نام مثلاً ليستريح بنفسه فيقوى على العبادة كان نومه أيضاً عبادة، وأما القسم الثاني وهو أن يكون الباعث نفسانياً فهذا لا يتصور إلا من محب

(1) معروف الكرخي: هو معروف بن فيروز الكرخي أبو محفوظ أحد أعلام التصوف والزهد، وهو من موالى علي بن موسى الرضا، ولد في كرخ ببغداد من أبوين نصرانيين ونشأ بها وتوفي بها سنة (200هـ) اشتهر بالصلاح والتقوى وكان يقصده الناس للتبرك حتى كان الإمام أحمد بن حنبل من الذين يزورونه بين حين وآخر.

انظر جمهرة الأولياء ج2/142، الأعلام للزركلي (ج8/185) طبقات الصوفية ص: 83-90، تاريخ بغداد (ج13/

لنفس والدنيا مستغرق الهم بهما بحيث لم يبق لحب الله تعالى في قلبه مقرّ وكان أن في القسم الأول لما غلب حب الله وحب الآخرة على قلبه اكتسبت جميع حركاته الاختيارية هذه الصفة كذلك من غلب حب النفس والدنيا على قلبه اكتسبت جميع حركاته وأفعاله تلك الصفات .

فلا تسلّم له شيء من عباداته، وهذان القسمان لا يخفى حكمهما في الثواب والعقاب وأما الأقسام الثلاثة الباقية فنقول: أما الذي يستوي الباعثان فيه فالأظهر أنهما يتعارضان ويتساقطان، ويصير ذلك العمل لا له ولا عليه .

وأما الذي يكون أحد الطرفين فيه أغلب فيحبط منه ما يساوي الطرف الآخر، وتبقى الزيادة موجبة أثرها اللائق، وذلك هو المراد بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: 7].

وتمام التحقيق فيه: أن الأعمال لها تأثيرات في القلب فإن خلى المؤثر عن المعارض خلى الأثر عن الضعف، وإن كان المؤثر مقروناً بالمعارض فإن تساويهما تساقطاً وإن كان أحدهما أغلب فلا بدّ وأن يحصل في الزائد بمقدار الناقص فحصل التساوي بينهما ويحصل التسايط ويبقى القدر الزائد خالياً عن المعارض فيؤثر لا محالة أثراً ما، وكما لا يضيع مثقال ذرة من الطعام والشراب والدواء عن أثر في الجسد كذلك لا يضيع مثقال ذرة من الخير والشرّ عن أثر في التقرب من باب الله والتباعد منه فإذا جاء بما يقربه شبراً مع ما يبعده شبراً (فقد)⁽¹⁾ عاد إلى ما كان: لا عليه ولا له وإن كان أحد الفعلين ممّا يقربه شبرين، والفعل الثاني ممّا يبعده شبراً واحداً يصل لا محالة له شيء .

واحتج من زعم أن المشوب لا ثواب عليه بوجهين:

الحجة الأولى: ما روى أن رجلاً سأل النبي ﷺ عمن يصطنع المعروف ثم يحب أن يحمد عليه⁽²⁾ فيؤجر، فلم يدر ما يقول حتى نزل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَمْذًا﴾⁽³⁾ [الكهف: 110].

(1) [فقد] في الأصل [وقد].

(2) عليه: ساقط من (ب).

(3) والحديث في صحيح مسلم (2985) بمعناه في حديث أبي هريرة.

الحجة الثانية⁽¹⁾: ما روى أبو هريرة أنه رضي الله عنه قال لمن أشرك في عمله: «خذ أجرك ممن عملت له». وعن النبي ﷺ: «أن الله تعالى يقول: (أنا أغنى الأغنياء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه غيري تركت نصيبي لشريكه)»⁽²⁾. والجواب عن الحجة الأولى⁽³⁾: أنها محمولة على ما إذا أتى بالعمل لغرض الدنيا فقط والجواب عن الثانية أن لفظ الشرك محمول على تساوي الداعيتين وقد بينا أن عند التساوي ينحبط كل واحد منهما بالآخرة.

إذا عرفت هذه المقدمة فنقول: كلمة لا إله إلا الله مسمّاة بكلمة الإخلاص؛ وذلك لأن الأصل في هذه الكلمة عمل القلب وهو كون الإنسان عارفاً بقلبه وحدانية الله تعالى وهذه المعرفة الحاصلة بالقلب يستحيل أن يؤتى بها لغرض آخر سوى طاعة الله وحبّه وعبوديته، فهذه المعرفة إن طلبت لوجه الله تعالى لا لغرض آخر ألبتة، بخلاف سائر الطاعات البدنية فإنها كما يؤتى بها لتعظيم الله تعالى فقد يؤتى بها لسائر الأغراض العاجلة من الرياء والمدح والثناء فلهذا السبب سميت هذه الكلمة بكلمة الإخلاص.

الاسم الثالث: لهذه الكلمة كلمة الإحسان: ويدل على صحة هذه التسمية القرآن والخبر والمعقول: أما القرآن فأيات إحداهما قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: 60] قال المفسرون: المراد من قوله: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ﴾ أي هل جزاء الإيمان.

والتحقيق فيه: أن عليك عهد العبودية وعلى كرمه عهد الربوبية كما قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: 40] وعهد عبوديتك أن تكون عبداً له لا لغيره ثم كمال هذه الدرجة أن يعرف أنّ كلّ ما سوى الله فهو عبد كما قال تعالى: ﴿إِنْ كُنَّ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: 93]، ومن أتى بالفعل على أحسن الوجوه كان محسناً فيه وقوله: لا إله إلا الله يدل على اعترافه بأن كل من سواه فهو عبده ومربوبه، فثبت أن قوله: لا إله إلا الله إحسان من العبد فقوله عز وجل: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: 60] أي: ما جزاء من أتى بقول لا إله إلا الله إلا أن

(1) الحجة الثانية إلى قوله عملت له ساقط من (ب).

(2) انظر: تفسير ابن كثير (3/ 108) والدر المنثور (4/ 253 - 254) للسيوطي.

(3) والجواب عن الحجة الأولى إلى قوله وثالثها قوله: وحسن قولاً إلخ ساقط من (ب).

أجعله في حماية لا إله إلا الله. وثانيها: قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: 26] والمراد من قوله ﴿أَحْسَنُوا﴾ قول لا إله إلا الله باتفاق أئمة التفسير وبدليل أنه لو قال ذلك ومات ولم يتفرغ لعمل آخر دخل الجنة. وثالثها: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ [فصلت: 33] واتفقوا على أن هذه الآية نزلت في فضيلة الأذان، وما ذاك إلا لاشتمال الأذان على كلمة لا إله إلا الله.

وأيضاً⁽¹⁾ فلأنه تعالى قال في صفة الكفار: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: 21] وكما أنه لا قبيح أقبح من كلمة الكفر فكذلك لا حسن أحسن من كلمة التوحيد؛ ولهذا قال تعالى في أول سورة المؤمنين: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ وقال في آخر هذه السورة: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ ثم إنه لما كان قول الموحد حسناً كان فعله أيضاً حسناً كما قال تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: 24]، ولما كان قول الكافر قبيحاً مظلماً كان مقيله أيضاً مظلماً قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ أَهْمُ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 257].

ورابعها: قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿٤﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: 17-18] ولا شك أن أحسن القول هو قول لا إله إلا الله.

خامسها: قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: 90]، وقيل⁽²⁾: العدل الإعراض عما سوى الله، والإحسان الإقبال على الله⁽³⁾.

وسادسها: قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾ [الإسراء: 7] ولا شك أن الإحسان⁽⁴⁾ هنا هو قول لا إله إلا الله.

وأما الخبر فما⁽⁵⁾ روى أبو موسى الأشعري، قال: قال رسول الله ﷺ: «للذين أحسنوا الحسنى»، أي: للذين قالوا لا إله إلا الله، الحسنى وهي الجنة، والزيادة

(1) وأيضاً فلأنه إلى قوله وخامسها قوله أن الله يأمر بالعدل . . . ساقط من (ب).

(2) قيل في (ب) قال .

(3) على الله في (ب) عليه سبحانه .

(4) أن الإحسان في (ب) أول هذا الإحسان .

(5) وأما الخبر فما ساقط من (ب).

(هي⁽¹⁾ النظر إلى وجه الله الكريم).

وأما المعقول⁽²⁾ فهو أن الفعل كلما كان أشد حسناً كان فاعله أكبر إحساناً، ولا شك أن أحسن الأذكار ذكر لا إله إلا الله وأحسن المعارف معرفة لا إله إلا الله وإذا كان كذلك كانت هذه المعرفة وهذا الذكر إحساناً.

الاسم الرابع: دعوة الحق: قال الله تعالى في سورة الرعد: ﴿لَمْ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ [الرعد: 14] قال ابن عباس ؓ: هو قول لا إله إلا الله. واعلم أن قوله تعالى: ﴿لَمْ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ يفيد الحصر، معناه: له هذه الدعوة لا لغيره كما أن قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (١) معناه لكم دينكم لا لغيركم. وتحقيق الكلام في إثبات هذا الحصر أن الحق نقيض الباطل فالحق هو الموجود والباطل هو المعدوم فلما كان الحق سبحانه حقاً في ذاته ولذاته ولصفاته وكان ممتنع التغيير في حقيقته كان معرفته هي المعرفة الحقة، وذكره هو الذكر الحق والدعوة إليه هي الدعوة الحقة، أما كل ما سواه فهو ممكن لذاته والممكن لذاته لا تكون معرفته واجب التحقق ولا ذكره ولا الدعوة إليه، وإذا ثبت هذا ظهر تحقيق قوله تعالى: ﴿لَمْ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾.

واعلم أن دعوة الحق تارة تكون من الحق للحق إلى الحق وتارة تكون من الخلق للخلق إلى الخلق:

أما الأول فنقول: أما أن دعوة الحق تكون من الحق فلأنه تعالى هو دعا القلوب إلى حضرته، فلولا دعوته إلى تلك الحضرة وتوفيقه لها في ذلك الوصول وإلا فمن أين يتمكن العقل البشري من الوصول إلى جلال حضرة الله تعالى، وأيضاً فلأن مبادئ الحركات وأوائل المحدثات تنتهي إلى قدرة الله تعالى وقضائه وقدره، ولهذا المعنى قال تعالى: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ [الروم: 4].

وأما أن تلك الدعوة للحق فلقوله: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر: 16].

وأما الانتهاء إلى الحق فلقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ [النجم: 42] وأما أن

(1) هي ساقط من (أ).

(2) وأما المعقول إلى قوله: إحساناً ساقط من (ب).

دعوة الحق تارة تكون من الخلق فلقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ [فصلت: 33] ولقوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾ [آل عمران: 193].

الاسم الخامس: كلمة العدل: قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾

قال عثمان بن مظعون الجمحي: ما أسلمت يوم أسلمت إلا حياء من محمد ﷺ وذلك أنه كان كثير العرض للإسلام علي فاستحييت منه وأسلمت ولكن الإسلام ما كان مستقراً في قلبي، ثم أنه ﷺ دعاني يوماً فجلست إليه فبينما هو يحدثني إذ وقع بصري على شخص ينزل من السماء فإذا هو جبريل ﷺ وقال يا محمد: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ العدل شهادة أن لا إله إلا الله والإحسان القيام بالعبودية، قال عثمان: فوقع الإيمان في قلبي⁽¹⁾. وقال ابن عباس: العدل شهادة أن لا إله إلا الله والإحسان الإخلاص فيه، وقال آخرون: العدل مع الناس والإحسان مع نفسك بالطاعة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَحْسَنَ مَا أَحْسَنْتَ لِأَنْفُسِكُمْ﴾ وقال آخرون: يأمر بالعدل مع الأعضاء وبالإحسان مع القلب بأن يريه بعد التوحيد وشراب المحبة وقال آخرون: العدل رؤية الافتقار إلى الحق والإحسان مشاهدة إحسان الحق على كل شيء في الخلق.

واعلم أن السبب في تسمية هذه الكلمة بكلمة العدل وجوه:

السبب الأول: أن العدل في كل شيء تحصيل ما هو سبب اعتداله وكمال حاله ومن المعلوم أن كمال حال القوى الحساسة في إدراك المحسوسات وكمال حال القوة الشهوانية في جلب الأشياء النافعة الجسمانية، وكمال حال القوة الغضبية في دفع الأشياء المنافية الجسمانية.

وأما القوة العقلية وكمال حالها وغاية سعادتها أن ترتسم فيها صور الحقائق وأشياء المعقولات كما هي حتى تصير القوة العقلية كالمرآة التي تجلب فيها صور الوجود بتمامها ولا شك أشرف المعقولات وأعلاها معرفة جلال الله وقديسته وعظمته وعزته فكان غاية العدل والاعتدال للأرواح البشرية والقوى العقلية كونها مقبلة على هذه الحالة مستغرقة فيها فلهذا السبب سميت كلمة لا إله إلا الله بكلمة العدل.

السبب الثاني: أن هذه الكلمة إنما سميت بكلمة العدل لأن معرفة الله تعالى متوسطة بين الإفراط الذي هو التشببية وبين التفريط الذي هو التعطيل، فمن بالغ بالإنبات وقع في التشببية ومن بالغ في التعطيل وقع في التعطيل والحق هو طريق

(1) لا يوجد فيما لدينا من المراجع.

الاعتدال بين هذين الطرفين المتباينين .

والسبب الثالث: من ترك النظر والاستدلال في معرفة الله تعالى وعوّل على الطريقة التي ألفها بحسه وخياله وقع في الضلالات . وأما من توغل في البحث وأراد الوصول إلى كنه العظمة وهوية الجلالة تحير وتردد بل عمي، فإن نور جلال الإلهية ما يعمي أحداق العقول البشرية فصار هذان الطرفان مذمومين والطريق المستقيم هو أن يخوض الإنسان البحث المعتدل ويترك التعميق، وإلى هذا الكلام الإشارة بقوله **﴿تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق﴾**⁽¹⁾، فهذه هي الوجوه التي لأجلها سميت كلمة لا إله إلا الله كلمة العدل .

فإن قيل كيف أمر الله بالعدل في بحر التوحيد وقد قال تعالى: **﴿وَأَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾** [النساء: 129] فمن عجز عن العدل في حق النساء كيف يقدر على العدل في معرفة الأحد الصمد . والجواب أظهر عجزك في الضعيف وأقدرك على الشريف لتعرف أن الكل منه .

الاسم السادس: الطيب: من القول قال تعالى: **﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنْ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ﴾** وأي كلمة توحيد توجد أظهر وأطيب من هذه الكلمة وقد قال تعالى: **﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾** ثم إن النجاسة الحاصلة بسبب كفر سبعين سنة يزول بسبب ذكر هذه الكلمة الطيبة مرة واحدة .

وتحقيق القول فيه أن الطيب هو اللذيذ واللذيذ هو إدراك الملائم، وقد بينا أن الملائم للقوى الحساسة إدراك المحسوسات، والملائم للقوة العقلية إدراك جلاله الله وقدسه وعزته . إذا عرفت هذا فنقول إدراك القوة العاقلة أقوى من إدراك القوى الحساسة، وسيأتي شرح هذا فيما بعد إن شاء الله تعالى . وأما مدركات القوى الحساسة فهي الأعراض القائمة بالأجسام الكائنة الفاسدة، ومدرك القوة العاقلة هو ذات الله وجلاله وعظمته، وظاهره أنه كلما كان الإدراك أقوى والمدرك أشرف كانت اللذة الحاصلة بسبب ذلك الإدراك أشرف وأعلى، فعلى هذا نسبة اللذة العقلية إلى الحسية في الشرف والقوة كنسبة الإدراك العقلي إلى الإدراك الحسي وكنسبة ذات الله تعالى وصفاته في الشرف والتعالي إلى الأعراض القائمة بالأجسام، وكما أنه لا نهاية للنسبة

(1) نسب إلى ابن الشيخ وأغلب الظن أنه في كتاب العظمة، وأنه غير صحيح .

الحاصلة بين هذين الإدراكين وبين هذين المدركين فكذلك لا نهاية للنسبة الحاصلة من اللذات العقلية الحاصلة بسبب إدراك المطعوم والروائح وسائر الحواس . وإذا عرفت هذا ظهر أن الطيب المطلوب هو معرفة لا إله إلا الله وذكر لا إله إلا الله، والاستغراق في أنوار جلال لا إله إلا الله فلهذا السبب قال الله تعالى: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنْكُمُ الْقَوْلِ﴾ والمراد منه كلمة لا إله إلا الله والألف واللام في لفظ الطيب للاستغراق كأنه تعالى نبه أنه لا لذيذ ولا طيب إلا هذا وذلك هو الحق (لأنابينا) أن طيب المحسوسات بالنسبة إلى طيب هذه الحالة عدم محض فلذلك بيّن بحرف الاستغراق أن كل الطيب ليس إلا ذلك .

الاسم السابع: الكلمة الطيبة: قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَرَى كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ واختلفوا في أنه تعالى لم سماها كلمة طيبة على وجوه:

الأول: أنها طيبة بمعنى أنها طاهرة عن التشبيه والتعطيل، ولكنها طريقة متوسطة بينها مبيّنة لكل واحد منها مصفى عن شائبة كل واحدة منها.

الثاني: أنها طيبة بمعنى أن صاحبها يكون طيب الاسم في الدنيا طيب المسكن في العقبى أما طيب اسمه فيقول تعالى: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ وأراد به المؤمنين والمؤمنات، وأما طيب المسكن فلقوله تعالى: ﴿وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ .

الثالث: أنها طيبة بمعنى أنها مقبولة يقبلها الله تعالى ويصعد إليه كما قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ قال أهل الإشارة والسبب في أن هذه الكلمة تصعد إلى الله تعالى بذاتها لأن هذه الكلمة طيبة وقال عليه السلام: «إن الطيب لا يقبل إلا الطيب» وتمام التحقيق فيه أن العقل والروح عاشقان على التجلي والمعرفة والمكاشفة على ما سبق تقريره بالبرهان والمعرفة منجذبة إلى المعرفة وإذا تصاعد العرفان إلى المعروف والعارف ملازم للعرفان انجذب العارف إلى المعروف وصعد إليه فذاك هو المراد من قوله عز وجل: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ .

سؤال: قال المفسرون: الشجرة الطيبة هي النخلة، فما السبب في تشبيه كلمة التوحيد بالنخلة؟ الجواب عنه من وجوه:

الأول: أن شجرة النخلة لا تنبت في جميع البلدان بل في البعض دون البعض،

فكذلك كلمة التوحيد لا تجري على كل لسان ومعرفة التوحيد لا تحصل في كل قلب.

والثاني: أن النخلة أطول الأشجار، فكذا كلمة التوحيد أعلى الكلمات.

والثالث: أن الشجرة الطيبة ثابتة في الأرض وفرعها في السماء، وكذا أصل الكلمة الطيبة ثابت في القلب وهو المعرفة وفرعها ثابت في السماء ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾.

والرابع: أن شجرة النخلة تحمل في كل سنة مرتين كذلك الإيمان يحمل في الدنيا مرة فيثاب لأجل إيمانه وهو أهلية الشهادة والولاية والإمامة ومرة أخرى في الآخرة وهي الجنة الباقية والنعمة الدائمة.

الخامس: أن النخلة وإن حصل في وسط ثمرتها نواة ولا منفعة، فإن قيمة تلك الثمرة لا تنقص بسبب تلك النواة، فكذلك كلمة التوحيد فإن كان يحصل معها شيء من المعاصي إلا أن قيمتها لا تنتقص بسبب ذلك ﴿قُلْ يَكْفُرُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾.

والسادس: أن النخلة أسفلها الذي يقرب من الناس كله شوك والثمرة والمنفعة لا تحصل إلا في أعلاها، فكذلك الدين أوله التكاليف الشاقة التي هي كالشوك وفي أعلاها الثمرة الحلوة اللذيذة وهي المعرفة والمحبة.

الاسم الثامن: الكلمة الثابتة: قال الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وفي علة هذه التسمية وجوه:

الأول: أن المذكور والمعلوم ثابت واجب الثبوت لذاته ممتنع العدم لذاته والقول والاعتقاد تتبعان المقول والمعتقد فلما كان المقول والمعتقد واجب الثبوت لذاته كان القول والاعتقاد فلهذا سماه الله بالقول الثابت.

الثاني: أن هذا القول الثابت لا تؤثر فيه الأعمال وذلك إشارة بالقول الثابت إلى الإيمان لا يزداد بالطاعة ولا ينقص بالمعصية.

الثالث: أن هذا القول ثابت لا يؤثر الذنب فيه بل هو مؤثر في إزالة الذنب

لأن الموحّد وإن عظم ذنبه إلا أنه يرجو المغفرة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَهُ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: 48] والكافر وإن عظم كفره فإذا رجع عن الكفر إلى توحيد هدم التوحيد كفره.

الرابع: أنّ هذه الكلمة ثابتة في الآخرة لا ترتفع عن العبد وذلك لأن أهل الجنة مشغولون في الجنة بذكر التوحيد، ألا ترى أن الله أخبر عنهم: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ [فاطر: 34] ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ [الأعراف: 43].

الخامس: أنها ثابتة؛ لأن لها أصلاً محكماً؛ وذلك أنّ أول من شهد هذه الشهادة هو الله تعالى بدليل قوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾؛ فشهادة جميع الشاهدين بتوحيد الله فرع على شهادة الله، وشهادته هي الأصل وكل شهادة أصلها شهادة الله فهي ثابتة في الدنيا والآخرة.

السادس: أن الإنسان بدون هذه الكلمة يعمل فيه الماء والنار، ومع هذه الكلمة لا يعمل فيه الماء والنار، أما بيان أن الإنسان بدون هذه الكلمة يعمل فيه الماء والنار، أنّ فرعون أغرق في الماء أولاً ثم نقل من الماء إلى النار: ﴿أَغْرِقُوا فَاذْخُلُوا نَارًا﴾ (1)، وعجل السامري إحراق بالنار أولاً ثم نقل من النار إلى الماء: ﴿لَتُحْرَقَنَّ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه: 97].

وأما [بيان أن الإنسان مع هذه الكلمة لا يعمل فيه الماء والنار فهو] إبراهيم وموسى؛ فقد كانا مع حقيقة هذه الكلمة ولم تعمل النار في إبراهيم: ﴿قُلْنَا يَنْتَهِ كُوفِي بَرْدًا وَسَلَّمًا عَلَيَّ إِبرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: 69]، ولم يعمل الماء في موسى عليه السلام: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أَرْمُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: 7].

الاسم التاسع: كلمة التقوى: قال تعالى: ﴿وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾ [الفتح:

26] وفي سبب هذه التسمية وجوه:

الأول: أنه لما اتقى صاحب هذه الكلمة أن يصف ربّه بما وصفه به المشركون

(1) ويلاحظ أن المغرقين المدخلين النار هم قوم نوح، ولا علاقة للآية بفرعون.

وصف هذه الكلمة بأنها كلمة التقوى، ورأس التقوى انقاء الكفر.

ثم في هذه الآية إشارة وبشارة:

أما الإشارة: فهي أنه تعالى سمي نفسه أهل التقوى فقال تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى﴾ [المدثر: 56] وسمى الموحدین أهل كلمة التقوى فقال: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ فكأنه تعالى يقول: أنا أهل أن أكون مذكوراً بهذه الكلمة، وأنت أهل أن تكون ذاكراً لهذه الكلمة فما أعظم هذا الشرف.

وأما البشارة: فهي أنه تعالى قال: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ فأثبت أن الموحدین أحق الخلق بهذه الكلمة وهم أهل هذه الكلمة وأنه كريم لا ينزع الحق عن مستحقه فهذا يدل على أنه لا ينزل الإيمان من المؤمن.

الوجه الثاني: في بيان أنه لِمَ سميت هذه الكلمة بكلمة التقوى، هو أن هذه الكلمة واقية لبدنك من السيف، ولِمَالِكٍ عن الاستغنام ولذمتك عن الجزية ولأولادك عن السبي، فإن انضاف القلب إلى اللسان صارت واقية لقلبك عن الكفر وإن انضمت التوفيق إليه صارت واقية لجوارحك عن المعاصي ثم قال تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ أي نحن ألزمناهم هذه الكلمة التي هي المفتاح لباب الجنة، فنحن أردناهم أولاً وهم ما أرادونا فلنا المنة في فتح هذا الباب.

وتقريره قوله تعالى: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: 17]

الاسم العاشر: الكلمة الباقية: روي عن كثير من المفسرين أنهم قالوا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: 28] أنها قول لا إله إلا الله، ويدل عليه وجوه:

الأول: مقدمة هذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٦١﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي﴾ [الزخرف: 26-27] فكان معنى قوله: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ نفى الإلهية عن الأشياء التي كانوا يعبدونها ثم قال: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ فكان فيه إثبات الإلهية للذي فطره؛ فإذا حصل هذان المعنيان كان مجموعها هو قول: لا إله إلا الله، ثم قال: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ فثبت أن المراد من الكلمة الباقية هو قول: لا إله إلا الله.

الثاني: أنه تعالى قال في آخر القصص: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: 88] فبين أن كل شيء هالك إلا هو فإنه واجب الدوام والبقاء والسرمديّة، وقد عرفت أن القول يتبع المقول والاعتقاد يتبع المعتقد فكان صدق لا إله إلا الله وحقيقة لا إله إلا الله واجب الثبوت والبقاء والدوام وذلك هو المراد بكونها باقية.

الثالث: أنا بينا أن التوحيد لا يزول بسبب المعصية والمعصية تزول بسبب التوحيد، وأيضاً يبقى مع أهل الجنة وسائر الطاعات لا تبقى روى جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ عن جبريل عليه السلام: «يقول الله يوم القيامة: ما لي أرى فلاناً في صفوف أهل النار؟ فأقول: يا ربّ إنّنا لم نجد له حسنة، فيقول الله تعالى: إني سمعته في الدنيا يقول: يا حنان يا منان فاذهب إليه فأسأله، فيأتيه فيجده في زاوية من زوايا جهنم يقول: يا حنان يا منان فيسأله جبريل عن هذه الكلمة فيقول: وهل حنان ومنان غير الله؟! قال جبريل: فأخذ بيده أخرجته من صفوف أهل النار فأدخله في صفوف أهل الجنة»⁽¹⁾.

الاسم الحادي عشر: كلمة الله العليا: قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 40].

واعلم أن السبب في علو هذه الكلمة وجوه:

الأول: هو أن القلب إذا تجلّى فيه نور هذه الكلمة كان ذلك التجلي نور الربوبية، ونور الربوبية إذا تجلّى في القلب استعقب حصول قوة إلهية بالله ولهذا السبب فإن العارفين المستغرقين في أنوار جلال الله يستحقرون الأحوال الدنيوية، فيستحقرون عظماء الملوك ولا يبالون بالقتل ولا يقيمون لشيء من طيبات الدنيا وزناً ألبتة؛ فكل ذلك يدل على استعلاء قوة هذه الكلمة على جميع الأشياء؛ فإن سلطان كل شيء يضمجّل في سلطان جلال هذه الكلمة. انظر إلى استغراق سحرة فرعون لما تجلّى لهم نور هذه الكلمة كيف لم يلتفتوا إلى قطع الأيدي والأرجل؟! وأن محمداً لما استغرق في هذا النور لم يلتفت إلى الملكوت كما قال تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: 17]. روي أن إبراهيم الخواص كان في البادية فظهر عليه شيء من هذه

(1) نسبه السيوطي في الجامع الكبير إلى الحكيم الترمذي في النوادر، وهو لا يصح على قاعدة السيوطي، لكنه في حديث أنس عند البيهقي في الأسماء والصفات ما يشبهه.

الأحوال، فاضطجع وجاءته السباع وأحاطوا به وما كان يبالي بها فخاف صاحبه الذي كان معه وصعد بعض تلك الأشجار وبقي هناك جائعاً، وفي الليلة الثانية زال ذلك الوجد فوقعت بعوضة على يده فتألم وأظهر الجزع فقال صاحبه: ما جزعت في البارحة من حضور السباع وأظهرت في هذه الليلة من البعوضة، فقال إبراهيم:

«كان في البارحة نزل في القلب سلطان، فبقوة ذلك السلطان ما كنت أبالي بجميع الملكوت، وأما الآن فقد غاب عني ذلك السلطان فظهر العجز كما ترى».

السبب الثاني: في كون هذه الكلمة عالية استعلاؤها في الدنيا على سائر الأديان كما قال تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: 33].

السبب الثالث: في استعلائها كونها مستعلية على جميع الذنوب فإنها تزيل جميع الذنوب، وشيء من الذنوب لا يزيل هذه الكلمة.

الاسم الثاني عشر: المثل الأعلى: قال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: 60] قال (1): معناه قوله لا إله إلا الله.

واعلم أنّ معنى المثل هنا الصفة، كذا قال أهل اللغة ونظيره قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ﴾ [الرعد: 35] أي صفتها فصار المراد (2) من قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ عين المراد من قوله: ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾.

الاسم الثالث عشر (3): كلمة السواء: قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: 64].

قال أبو العالية الرياحي: هي كلمة لا إله إلا الله، والدليل عليه أنه تعالى قال

بعدها:

﴿أَلَا تَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: 64] ولا معنى لهذه الآية إلا ما هو المراد من قولنا: لا إله إلا الله، فثبت أن المراد من كلمة السواء هي كلمة لا إله إلا الله.

(1) قال معناه في (ب) قال قتادة معناه.

(2) فصار المراد في (ب) والمراد.

(3) الاسم الثالث عشر من هنا إلى قوله أحدها ما روى جابر بن عبد الله ساقط من (ب).

ومما يقرر ذلك أن جميع العقول معترفة بصحة لا إله إلا الله وجميع الألسنة ناطقة بها وجميع الرقاب مُتخضعة لها، قال تعالى: ﴿وَكَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: 87].

وأيضاً يحتمل أنها سميت بكلمة السواء لأنها تفيد الاستواء في الدين والعقل والروح ويوجب الاستقامة وترك الاعوجاج في كل الأمور والله أعلم.

الاسم الرابع عشر: أنها كلمة النجاة: والذي يدل عليه القرآن والحديث والمعقول، أما القرآن فمن وجهين:

الأول: قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: 116] فهذه الآية صريحة في أن النجاة لا تحصل بدون الإيمان بلا إله إلا الله وتحصل مع الإيمان بلا إله إلا الله.

والثاني: قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ مَا لِيَ أَذْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ﴾ [غافر: 41] [أي] إلى قول لا إله إلا الله. وأما الخبر فيدل عليه الأخبار التي ذكرناها في الفصل الثاني ونزدها هنا أخباراً أخر:

أحدها: ما روي عن جابر بن عبد الله قال: سُئِلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عن الموحدين⁽¹⁾ فقال عليه أفضل الصلاة والسلام: «من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة ومن لقي الله يشرك به شيئاً دخل النار»⁽²⁾.

ثانيها⁽³⁾: عن أبي سعيد الخدري قال ﷺ: «لَقِنَا مَوْتَاكُم شَهَادَةَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»⁽⁴⁾.

(1) الموحدين في (ب) الموجبتين.

(2) رواه مسلم (93).

(3) ثانيها: من هنا إلى قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ [إلخ ساقط من (أ)].

(4) رواه مسلم (3117)، والترمذي (983)، والنسائي (5/4)، وابن ماجه (1445)، وأحمد (3/3)، وابن أبي

شيبه في المصنف (75/4)، والبيهقي (383/3)، والبغوي في شرح السنة (1465) وليس عندهم «شهادة أن»

وهو عندهم من حديث أبي سعيد ورواه مسلم (917)، وابن ماجه (1444)، وابن الجارود في المنتقى (256)،

وابن حبان (719/ موارد) والبيهقي من حديث أبي هريرة ورواه النسائي (514) من حديث عائشة.

ثالثها: رأى عمر بن الخطاب طلحة بن عبد الله ثقيلاً مغموماً بعد موت رسول الله ﷺ فقال: ما لك؟ قال: سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً ما منعني أن أسأله إلا القدرة عليه حتى مات، سمعته يقول: «إن أعلم كلمة لا يقولها عبد عند موته إلا أشرق لها لونه ونفس الله بسببها كربته» فقال عمر: (إني أعلم ما قال، قال: وما هي؟ قال: هي الكلمة التي أمر بها عمه عند الموت وهي لا إله إلا الله، فقال طلحة: صدقت هي والله هي).

رابعها: روى أبو أمامة قال: بعث رسول الله ﷺ أبا بكر ينادي في الناس: من شهد أن لا إله إلا الله دخل الجنة⁽¹⁾.

خامسها: قال معاذ بن جبل حين حضرته الوفاة: اكشفوا عني سجد القبة حتى أحدثكم حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ لم يمنعني أن أحدثكموه إلا أن تتكلموا⁽²⁾ ويزكوا النار.

سادسها: عن عبد الله بن أبي قتادة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله يجري بها لسانه ويطهر بهما قلبه حرمت النار عليه⁽³⁾».

سابعها: روى أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ لأبي الدرداء: «ناد في الناس من شهد أن لا إله إلا الله وجبت له الجنة» قال أبو الدرداء: وإن زنا وإن سرق؟ قال: «وإن زنا وإن سرق». قال: وإن سرق؟ قال «وإن زنا وإن سرق»، قال: وإن زنا وإن سرق؟ حتى قالها ثلاث مرّات فقال في الثالثة: «وإن... رغم أنف أبي الدرداء»⁽⁴⁾.

ثامنها: ما روى معاذ بن جبل عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من كان آخر كلامه

= وورد لفظ «شهان أن» في حديث ضعيف عند الطبراني في الكبير (13024) من حديث ابن عباس.

(1) رواه أبو يعلى (105) من حديث أبي بكر بإسناد ضعيف ونسبه السيوطي في الجامع الكبير إلى ابن عساکر، وله شاهد في حديث أبي هريرة عند مسلم (31)، وابن حبان (7/ موارد) من حديث جابر.

(2) توجد على هامش (أ) عبارة (هنا سقط من الأم) والظاهر أن الناسخ لم يجد ما يكمل هذا الخبر.

(3) لم نره من حديث أبي قتادة، وهو عن عبادة عند مسلم (29)، وأحمد والترمذي (2639) بلفظ مغاير.

(4) هو عند الطبراني من حديث أبي الدرداء، انظر فتح الباري (11/ 261-265) كتاب الرقاق، باب: المكثرون هم

الأقلون وتعليق التعليق (5/ 165 - 167) لابن حجر.

لا إله إلا الله وفاضت نفسه بعده دخل الجنة⁽¹⁾» .

الاسم الخامس عشر: العهد: قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [مریم: 87] العهد هو قول: لا إله إلا الله . وأقول: الذي يدل على صحة قول ابن عباس وجوه:

الأول: أن قوله: ﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [87] نكرة في ظرف الثبوت، وذلك لا تفيد إلا عهداً واحداً، فهذه الآية تدل على أن تلك الشفاعة تحصل بسبب عهد واحد، ثم أجمعنا على أن ما سوى الإيمان . . فإن الواحد منه بل مجموعه لا تفيد تلك الشفاعة البتة، فوجب أن يكون ذلك العهد الواحد الذي يفيد تلك الشفاعة هو الإيمان وقول لا إله إلا الله .

والثاني: أن جماعة من المفسرين قالوا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: 40] هو عهد الإيمان بدليل أن⁽²⁾ لفظ العهد مجمل فلما أعقبه بقوله: ﴿وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: 41] علمنا أن المراد من ذلك العهد هو الإيمان، وهو قول لا إله إلا الله محمد رسول الله .

والثالث⁽³⁾: أن أول ما وقع من العهد قوله تعالى: ﴿الَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ وذلك في الحقيقة هو قول لا إله إلا الله فكان لفظ العهد محمولاً عليه .

والرابع: أنه تعالى قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ [التوبة: 111] فكان العهد من جانبك عهد الإقرار بالعبودية ومن جانب الحق ﷻ عهد الكرم والربوبية فثبت بهذه الوجوه أن المراد من قوله: ﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [مریم: 87] وهو عهد قول لا إله إلا الله .

الخامس: قوله تعالى: ﴿أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا﴾ [البقرة: 80] أي: قلتم لا إله إلا الله .

الاسم السادس عشر: كلمة الاستقامة: قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا

(1) رواه أحمد (5/ 233)، وأبو داود (3116)، والحاكم (1/ 351) ولكن ليس عندهم: «وفاضت نفسه بعد» .

(2) أن ساقط من (ب) .

(3) والثالث من هنا إلى قوله أن قيل ما الحكمة ساقط من (ب) .

اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا ﴿فصلت: 30﴾ هو قول لا إله إلا الله وذلك لأن قولهم ربنا الله إقرار بوجود الرب ثم إن [من] المقرين بذلك من أثبت له ندًا وشريكاً، فالذين نفوا الشركاء والأضداد هم الذين استقاموا على النهج القويم والصراط المستقيم. واعلم أن القيام في القيامة بقدر الاستقامة في نفي الشركاء. قال ابن مسعود: المراد من قوله استقاموا نفي الشركاء فمن الناس من أثبت الشرك ظاهراً وهو الشرك الظاهر فالاستقامة في الدين لا تحصل إلا بنفي الشركاء كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 22] ومنهم من أقر بالوحدانية في الظاهر إلا أنه يقول قولاً يهدم ذلك التوحيد مثل أن يضيف السعادة والنحوسة إلى الكواكب أو يضيف الصحة والسقم إلى الدواء والغذاء أو يضيف الفعل إلى العبد على سبيل الاستقلال وكل ذلك يبطل الاستقامة في معرفة الحق ﷻ ومنهم من ترك كل ذلك ولكن قد يُطبع النفس والشهوة في بعض الأفعال وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ﴾ [الفرقان: 43] وهذا النوع من الشرك وهو المسمى بالشرك الخفي. والمراد من قوله تعالى حكاية عن إبراهيم وإسماعيل ﷺ: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ [البقرة: 128] وقول يوسف ﷻ: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ [يوسف: 101] فإن الأنبياء مبرؤون عن الشرك الجلي، أما الحالة المسماة بالشرك الخفي وهو الالتفات إلى غير الله فالبشر لا ينفك عنه في جميع الأوقات. فهذا السبب يضرع الأنبياء والرسل إلى الله في أن يصونهم عنه.

الاسم السابع عشر: مقاليد السماوات والأرض: قال تعالى: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ

السَّمَوَاتِ﴾ [الزمر: 63] قال ابن عباس: هو قول لا إله إلا الله وأقول هذا هو الحق ويدل عليه وجوه:

الأول: أنه تعالى بيّن أنه لو كان في الوجود إلهان لحصل الفساد في العالم ولاختلت المصالح، قال الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: 22] فثبت أن الشرك سبب لفساد العالم وأن التوحيد سبب لانتظام أمر العالم فثبت أن مقاليد السموات والأرض هو قول لا إله إلا الله.

الثاني: أننا بيّنا أن الشرك سبب لفساد العالم بدليل قوله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا﴾ ﴿٩١﴾ أن دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدَا ﴿ [مریم: 90 - 91] وإذا كان كذلك كان التوحيد سبباً لعمارة العالم.

الثالث: أن أبواب السماء لا تنفتح إلا بقول لا إله إلا الله وأبواب الجنان لا

تفتح إلا بهذا القول، وأبواب النيران لا تنغلق إلا بهذا القول، وباب القلب لا يفتح إلا بهذه الكلمات، وأنواع الوسائل لا تندفع إلا بهذا القول، فكانت هذه الكلمة أشرف مقاليد السموات والأرض وعزّ مفاتيح الأرواح والنفوس والأجسام والعقول.

الاسم الثامن عشر: السيد: قال الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٥﴾﴾ [الأحزاب: 70].

قيل في تفسيره: الفعيل قد يكون بمعنى الفاعل كالسميع بمعنى السامع، وقد يكون بمعنى المفعول كالقتيل بمعنى المقتول والجريح بمعنى المجروح، وإذا حملته على معنى الفاعل كان معناه أنه يسدّ على صاحبه أبواب جهنم، وإذا حملته على معنى المفعول كان معناه أنه يسدّ عن أن يضره شيء من الذنب، وأيضاً أن ذا القرنين بنى السدّ دفعاً لضرر يأجوج ومأجوج والله تعالى جعل الإيمان سدّاً لضرر الشياطين من الجن والإنس.

الاسم التاسع عشر: البر: قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ فَقَلَّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: 177] والإشارة في الآية أن من كان مشتغلاً بجميع الجوانب والجهات لم يكن صاحب البر وإنما صاحب البر هو الذي يتوجه إلى الكعبة ﴿وَجَهَّتْ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: 79].

فقوله: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ فَقَلَّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ إشارة إلى الكثرة والقول بالشركاء، وقوله: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾ إشارة إلى التوحيد فصار معناه هو المفهوم من قولنا لا إله إلا الله.

الاسم العشرون: الدين: قال الله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ﴾ [الزمر: 3] واعلم أن الدين هو الانقياد والخضوع، قال عليه أفضل السلام في دعواته: «من دانت له الرقاب» أي: خضعت، فقوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ﴾ أي له الخضوع والخشوع لا لغيره وإنما يكون كذلك إذا كان واحداً في إلهيته إذ لو وجد إلهان لكان كما أن الخضوع حاصل لأحدهما، كان أيضاً حاصلاً للثاني فحينئذ لا يمكن حصر ثبوت الخضوع لله فقط، فالحصر دل على أنه لا إله إلا هو ولا معبود إلا إياه.

الاسم الحادي والعشرون: الصراط: قال تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ قال تعالى حكاية عن رسوله ﷺ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ و﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي

إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٧﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴿٥٨﴾ واعلم أن هذا الصراط المستقيم هو قول لا إله إلا الله وذلك باعتبار أن حدوث كل محدث وإمكان كل ممكن يحوجه إلى المؤثر الذي يوجد وينقله من العدم إلى الوجود فإذا كان الموحد والمدبر واحداً، فمتى نسبت حدوث المحدثات أو وجود الممكنات إلى قدرته كان ذلك صراطاً مستقيماً وطريقاً قيماً.

ومتى نسبت حدوث محدث أو وجود ممكن إلى غير قدرته كان ذلك طريقاً معوجاً وسبباً منحرفاً، فثبت أن الصراط المستقيم لا يحصل إلا بإسناد كل الحوادث والممكنات إلى تخليق الله وتكويناته وإسناد الكل إليه، فهو التوحيد فثبت أن الصراط المستقيم هو قولنا لا إله إلا الله.

الاسم الثاني والعشرون: كلمة الحق: لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَن شِئَ بِالْحَقِّ﴾ [الزخرف: 86] يعني قول لا إله إلا الله.

الاسم الثالث والعشرون: العروة الوثقى: قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْمُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ يعني لا إله إلا الله.

الاسم الرابع والعشرون: كلمة الصدق: لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.

فهذا جملة الكلام في أسماء قول لا إله إلا الله اللهم بحق أسمائك الطاهرة المطهرة المقدسة احفظ بحفظك معرفة هذه الكلمة في قلوبنا وذكرها على ألسنتنا يا أرحم الراحمين.

الفصل الرابع: في الأشياء التي شبه الله تعالى كلمة التوحيد بها

فالأول: أن الله تعالى شبه الإيمان بالنار فقال: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: 17] وقال في آية أخرى: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ﴾ [الرعد: 17] وفيه إشارتان: الأولى: كما أن النار إذا عرضت عليها الذهب المغشوش أحرقت كل ما فيه من الغش ويبقى جوهر الذهب سليماً عن الاحتراق، فكذلك يوم القيامة إذا عرض المذنب على نار جهنم احترقت ذنوبه ومعاصيه وبقي إيمانه سليماً عن الاحتراق.

الثانية: أن النار تحرق كل شيء، فكذا الإيمان إذا قوي نوره أحرقت ما سوى الله على القلب: ﴿قُلِ اللَّهُ تَمَّ ذَرَهُمْ فِي حَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: 91].

النوع الثاني: من الأمور التي شبه الله الإيمان بها: النور، قال تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ . . . إلخ والسبب أنه أضاف المعرفة إلى نفسه من وجوه:

الأول: أنه أضاف المعرفة إلى نفسه قطعاً للأطماع عنها، وذلك أنها جوهرة نفيسة وقيمتها رفيعة وصاحبها عاقل، والشيطان مختار مكّار ويحل مقصوده أن يأخذ المعرفة من القلب العارف ويحول بينه وبينه، فالله سبحانه برحمته جعل المعرفة في حمايته حتى ينقطع طمع إبليس عنها وتحقيقه أنه تعالى قال: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ ولما أضاف العباد إلى نفسه انقطع طمع إبليس عنهم فقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٧) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ [ص: 82-83] فها هنا لما أضاف الإيمان إلى نفسه بقوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ لا جرم كان طمع إبليس منقطعاً عنه.

الثاني: أن كل ما للعبد فهو للحق، لأنه حصل بتخليقه وإيجاده فإذا بلغ العبد درجات المكاشفات إلى أن شاهد هذه الحالة فقد كملت حالته وعظمت درجته فعند ذلك قيل كل ما له فهو لنا، وكل ما لنا فهو له، فالمعرفة التي هي له فهي لنا فلا جرم أنه أضافها إلى نفسه فقال: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ .

الثالث: أن تخصيص الشيء بإضافته إلى الله سبحانه سبب لتشريفه كما في قوله: ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي﴾ [الحج: 26] وكما في قوله: ﴿هَذَا إِلَهُ اللَّهِ﴾ [هود: 64] وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ﴾ [الجن: 19] فكذا هاهنا إضافة المعرفة إلى نفسه يدل على أنها أشرف الخلع والتشريفات. ثم هاهنا سؤالان:

السؤال الأول: ما الحكمة في أن الله سبحانه شبه نور المعرفة بنور السراج؟.

قال: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكُورٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [التور: 35] الجواب من وجوه:

الأول: أن البيت إذا كان فيه سراج لم يتجاسر اللص على دخوله مخافة أن يفتضح، وكذلك القلب إذا كان فيه سراج المعرفة لم يتجاسر الشيطان على دخوله مخافة أن يفتضح.

الثاني: أن البيت إذا كان فيه⁽¹⁾ سراج اهتدى صاحبه إلى طلب الأمتعة، وكذلك القلب إذا كان فيه سراج المعرفة اهتدى صاحبه إلى الشروع في الطاعات.

والثالث: إذا كان السراج في البيت انتفع بضيائه كل أحد من غير أن ينقص من استضاءة صاحبه بنوره شيء، فكذلك كل قلب كان فيه سراج المعرفة ينتفع بنوره غير صاحبه من غير أن ينقص من نور صاحبه شيء.

الرابع: أن السراج إذا كان في البيت وكان موضوعاً في كوة مسدودة بزجاجة أضواء داخل البيت وخارجه، فكذلك سراج المعرفة في القلب يضيء داخل القلب وخارجه حتى يظهر نوره على الأذنين والعينين واللسان، فيظهر فنون الطاعات من هذه الأعضاء. وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «اللهم اجعل في قلبي نوراً وفي سمعي نوراً وفي بصري نوراً وفي عظمي نوراً وفي مخي نوراً».

الخامس: أن البيت إذا كان فيه سراج كان صاحبه مستأنساً مسروراً، فإذا أطفئ السراج صار مستوحشاً، فكذا القلب ما دام فيه سراج المعرفة كان صاحبه مستأنساً مسروراً، وإذا فارقه - والعياذ بالله - صار حزيناً مغموماً، قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: 125].

(1) من هنا إلى قوله أن قيل ما الفرق بين سراج الدنيا... إلخ. ساقط من (ب).

السادس: أن جرم السراج صغير وضوؤه منتشر في كل جانب، وكذلك ضوء المعرفة ينتشر من القلب إلى جميع الجوانب كما قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ وخصوصاً من جانب العلو قال الله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾.

السؤال الثاني: ما الفرق بين سراج الدنيا الذي هو الشمس وبين سراج المعرفة؟
الجواب - والله أعلم⁽¹⁾ - الفرق من وجوه:

الأول: أن الشمس تحجبها غمامة والمعرفة لا تحجبها سبع سموات.

الثاني: أن الشمس تغيب في الليل⁽²⁾، والمعرفة لا تغيب ليلاً ولا نهاراً بل هي في الليل أكد قال تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأًا وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ [المزمل:6]⁽³⁾ وقال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ وقال: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾.

والثالث: أن الشمس تفتنى قال تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير:1]، والمعرفة لا تفتنى قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ أي: إلا ما حصل برضاه.

الرابع: الشمس تنكسف والمعرفة لا تنكسف.

الخامس: الشمس تسود الأشياء والمعرفة تبيضها.

السادس: الشمس تحرق والمعرفة تنجي من الحرق.

السابع: الشمس تارة تضر وتارة تنفع، والمعرفة تنفع ولا تضر البتة.

الثامن: الشمس منفعتها في الدنيا والمعرفة منفعتها في الدنيا والآخرة.

التاسع: الشمس في السماء زينة لأهل الأرض والمعرفة في الأرض زينة لأهل السماء⁽⁴⁾.

(1) في (ب) والجواب من وجوه.

(2) في الليل، في (ب) بالليل.

(3) من هنا إلى قوله التاسع الشمس في السماء زينة ساقط من (ب).

(4) من هنا إلى قوله الثالث عشر ولاية الشمس في الدنيا ساقط من (ب).

العاشر: [الشمس] في الفوق وهي تضيء ما تحت، والمعرفة في قلب المؤمن وهو في التحت وتضيء ما فوقه: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: 10].

الحادي عشر: بالشمس ينكشف وجود الخلق، وبالمعرفة ينكشف وجود الخالق. والدليل عليه قول أمير المؤمنين علي عليه السلام حين قيل له: هل رأيت ربك؟ فقال: لا أعبد رباً لم أره.

الثاني عشر: الشمس يقع نورها على الولي والعدو، والمعرفة ليست إلا للولي.

الثالث عشر: ولأن الشمس في الدنيا دون الآخرة. وأما المعرفة فإنها في الدنيا ذات بداية وفي الآخرة ذات ولاية، وأيضاً فإن الكواكب مصباح الخلق والمعرفة مصباح الحق، وأيضاً فإن شعاع الكواكب ينزل إلى الأسفل⁽¹⁾ وشعاع المعرفة يصعد إلى العلو، وأيضاً فإن الكواكب تطلع من خزانة الفلك والمعرفة تطلع من خزانة الملك، وأيضاً فإن الكواكب علامة والمعرفة كرامة، وأيضاً فإن الكواكب⁽²⁾ موضع نظر المخلوقين والمعرفة موضع نظر رب العالمين؛ قال عليه السلام: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

السؤال الثالث⁽³⁾: ما الفرق بين السراج والمعرفة؟ والجواب من وجوه:

الأول: أن سراج الدنيا نوره مشوب بالظلمة، وهي الدخان الذي يعلوه، وسراج المعرفة نوره صاف لا ظلمة معه.

الثاني: أن سراج الدنيا يحرق نفسه لينتفع به غيره، وسراج المعرفة يحرق الذنب ويروح السرّ وينور الصدر.

الثالث: أن سراج الدنيا يضمحل في نور الشمس، وأما سراج المعرفة والتوحيد فإنه يضمحل نور الشمس في نوره.

الرابع: أن سراج الدنيا لا وفاء له يحرق من أوقده ومن أمده بالفتيلة كما يحرق من لم يوقده ومن لم يمدّه بشيء، وسراج المعرفة ذو وفاء لا يحرق صاحبه ألبتة بل ينجيه من الحرق، فشتان ما بين السراجين.

(1) الأسفل في (ب) أسفل.

(2) الكواكب في (ب) الكوكب.

(3) السؤال الثالث: من هنا إلى قوله روي أن معرفة العارف ساقط من (ب).

السؤال الرابع: ما الحكمة في تشبيه المعرفة بالمصباح؟

الجواب: وبالله التوفيق - من وجوه:

الأول: أن المصباح تضره الرياح، والمعرفة تضرها الوسواس والشبهات.

الثاني: أن المصباح لا تبقى بغير الدهن، والمعرفة تبقى بغير الدهن.

الثالث: لا بد للمصباح من حافظ يتعهده ولا بد لمصباح المعرفة من متعهد وهو فضل الله ورحمته.

السؤال الخامس: ما الحكمة في تشبيه القلب بالزجاجة؟

وهلّا شَبَّهَ بالذهب والفضة فإنهما أعزّ من الزجاجة، والجواب من وجوه:

الأول: أن الذهب والفضة وإن كانا نفيسين رفيعين إلا أنهما كثيفان يوقعان الحجاب، والزجاجة وإن كانت قليلة القيمة إلا أنها لطيفة صافية لا يوقع الحجاب؛ فإنه يرى باطنها من ظاهرها وبالعكس، والله تعالى ذكر هذا المثل لرفع الحجاب لا لوضعه.

الثاني: أنه ليس لآنية الزجاجة خطر إنما الخطر لما في الآنية، وكذا ليس لقلبك خطر إنما الخطر للإيمان.

الثالث: إذا انكسرت الزجاجة⁽¹⁾ لم تصلح إلا بإدخال النار والإذابة، وكذا القلب إذا فسد لا يصلح إلا بإدخال النار والإذابة: ﴿وَلَنْ مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مریم: 71].

الرابع: أن صاحب الذهب والفضة لا يخاف كسر[ما]⁽²⁾ لعلمه أن قيمتها لا تبطل بسبب الانكسار. أما صاحب الزجاجة فإنه يكون على حذر ووجل لعلمه بأنها إذا انكسرت بطلت قيمتها، وكذلك المؤمن ينبغي أن يكون على حذر ووجل كصاحب الزجاجة ولا يكون على أمن وسكون كصاحب الذهب والفضة.

والخامس: شبهه بالزجاجة لأن النور في⁽³⁾ الزجاجة أحسن وأتم ضياء منه في

(1) لم في الأصل ولم.

(2) كسرهما: في الأصل كسرهما.

(3) في: في هامس (أ) (من) كنسخة ثانية.

الذهب والفضة؛ فالزجاجة لقلّة قيمتها واستعدادها للانكسار والبطلان صار النور فيها أحسن، وهو إشارة إلى قوله: (أنا عند المنكسرة قلوبهم).

السؤال السادس: ما الحكمة في تشبيه تلك الزجاجة بالكوكب الدرّي؟

الجواب من وجوه؟.

الأوّل: أن الكوكب الدرّي فيه لأهل الأرض هداية كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَنَّا وَيَأْتَجِمُ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: 16] ولأهل السماء زينة قال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا زِينَةَ الْكُوكَبِ﴾ [الصافات: 6] فكذا قلب المؤمن سبب لهداية صاحب القلب إلى الخيرات وأيضاً نزهة لأهل السماء فإنه روي: (أن معرفة العارف تضيء لأهل السماء كما يضيء الكوكب الدرّي لأهل الأرض).

الثاني (1): أن الكوكب لا قدرة للشيطان عليه بل الكواكب (2) تحرق الشيطان، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيْطَانِ﴾ [الملك: 5] فكذا هاهنا قلب المؤمن لا سبيل للشيطان عليه بل نور قلبه وإيمانه يحرق الشيطان ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: 42]، وقال تعالى: ﴿الَّذِي يُوسِّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ [5] ولم يقل في قلوب الناس وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَلَيْفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الاعراف: 201]. وذلك التذكير هو ظهور نور الإيمان وقوله: ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ إشارة إلى احتراق وساوس الشيطان.

السؤال السابع (3): ما الحكمة في أنه شبه القلب بالكوكب لا بالشمس والقمر؟

والجواب من وجوه:

الأوّل: أن الكوكب يستتر بالنهار ويظهر بالليل، والعارف مستور بالنهار فإذا أظلم الليل ظهر بالخدمة والتضرع.

الثاني: أن الكوكب زينة السماء والقلب زينة العارف.

الثالث: أن الكواكب مصابيح السماء: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ والقلب

(1) والثاني في (ب) وأيضاً.

(2) الكواكب في (ب) الكوكب.

(3) السؤال السابع من هنا إلى قوله: السادس من أراد أن يستوقد، ساقط من (ب).

مصباح العارف قال تعالى: ﴿ كَيْشْكُورٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ [النور: 35].

السؤال الثامن: هل في تشبيه الإيمان بالسراج بشارة لأهل الإيمان؟

الجواب نعم لوجوه:

الأول: أن الشمس سراج استوقده الله للفناء ثم لا يقدر أحد على إطفائه، والمعرفة سراج استوقده للبقاء فكيف يقدر إبليس على إطفائه؟!

الثاني: استوقد الله سراج الشمس في السماء فهي تزيل الظلمة عن بيتك مع غاية البعد فإذا استوقد شمس المعرفة في قلبك [أفلا]⁽¹⁾ تزيل ظلمة المعصية عنك.

الثالث: من استوقد سراجاً فعليه تعهده، والله هو الموقد لسُرُج المعرفة قال تعالى: ﴿ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ ﴾ [المجادلة: 22] فلا جرم إمداد رحمته وعواطف تعهده حافظة كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: 9].

الرابع: اللص إذا رأى السراج في البيت مستوقداً لا يقصد ذلك البيت بالسرقة، والله تعالى أوقد سراج المعرفة في قلبك فكيف يقدر الشيطان من القرب منك؟!

الخامس: المجوس أوقدوا ناراً فلا يريدون إطفاءها، فالملك القدوس أوقد نار المحبة والمعرفة فكيف يرضى بإبطالها وإطفائها؟!

السادس: من أراد أن يستوقد سراجاً احتاج إلى سبعة أشياء: زند وحجر وحرّاق وكبريت ومسرجة وفتيلة ودهن؛ فالعبد إذا طلب سراج المعرفة فلا بد له من زند الجهاد: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا ﴾ [العنكبوت: 69] وحجر التضرع: ﴿ آدَعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا ﴾ [الأعراف: 55] وأما الحرّاق فهو (حرّاق)⁽²⁾ النفس بمنعها من شهواتها قال تعالى: ﴿ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾ [التازعات: 40] والرابع⁽³⁾ كبريت الإنابة: ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَيَّ رَبِّكُمْ ﴾ [الزمر: 54] والخامس مسرجة الصبر: ﴿ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال: 46] والسادس فتيلة الشكر: ﴿ وَأَشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ ﴾ [النحل: 114]، السابع دهن الرضا بقضاء الله قال

(1) [أفلا] في الأصل فلا.

(2) [حرّاق] في الأصلين [أحراق] حذفنا الهمزة لتصحيح الحمل.

(3) والرابع هذه الكلمة ساقط من (ب) ككلمات الخامس والسادس والسابع.

تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الطور: 48]، وقال ﷺ: «الرضا بالقضا باب الله الأعظم» فهذه السبعة تتعلق بك في حفظ عهد العبودية فإذا وفيت بعهد العبودية فهو (1) أولى أن يفى بعهد الربوبية كما قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوْفٍ بِعَهْدِكُمْ﴾ فيحفظ هذه المعرفة في قلبك وهذا الذكر في لسانك ويجعلها نوراً باقياً معك في القبر والظلمات والقيامة (2).

النوع الثالث (3): من الأمور التي شبه الله الإيمان بها التراب؛ قال تعالى: ﴿وَأَلْبَدُّ الطِّيبُ يُخْرَجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ [الأعراف: 58].

ووجه المشابهة أن التراب ذو أمانة: من أودع فيه شيئاً أسلم إليه أضعافه، قال الله تعالى: ﴿فِي كُلِّ سُنْبَلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ﴾ [البقرة: 261] وكذا المؤمن إذا عمل عملاً سلم الله إليه أضعاف ذلك العمل يوم القيامة.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّادِقُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: 10].

الثاني: من خاصية الأرض أنه يطرح عليها كل قبيح ويخرج منها مليح، فكذا أرض الإيمان يطرح عليها قبائح الكفر والذنوب ثم يخرج منها ثمرات المغفرة والرحمة والرضوان: ﴿فَأُولَئِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: 70].

الثالث: من خاصية الأرض أنها كالأم الحاضنة لك؛ فهي لك كالمهد، قال الله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [الزخرف: 10] أو كالخزانة لك: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: 29] وكالأم المشفقة عليك: ﴿وَمِنَّا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: 55] وكذلك الإيمان منه يحصل جميع منافعك في الدنيا والعقبى.

النوع الرابع: من الأشياء التي شبه الله بها القرآن والإيمان: الماء، قال الله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ إلى قوله: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ [الرعد: 17] أي: الإيمان والكفر فالزبد الكفر، والماء الإيمان.

وفي تقرير وجه المشابهة أوجه:

- (1) فهو في (ب) وهو.
- (2) والظلمات والقيامة في (ب) وظلمات القيامة.
- (3) النوع الثالث: من هنا إلى قوله وشبه الله تعالى القرآن بالمطر ساقط من (ب).

الأول: أن الماء يزيل النجاسة والأوساخ من البدن والثياب: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: 48]، ﴿وَيَا بَنِي إِسْرَائِيلَ فَطَعَنَّا بِهَذَا الْخَمِيرَ﴾ [المدثر: 4] وكذلك الإيمان يزيل نجاسة الكفر والمعصية عن القلب قال عليه السلام: «الإسلام يجب ما قبله».

الثاني: أن الله تعالى سمى الماء المنزل رحمة قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف: 57] وسمى القرآن رحمة فقال: ﴿وَهَدَىٰ رَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 57] وجعل الإيمان رحمة وسبباً للرحمة فقال: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ [المجادلة: 22] وقال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: 54] فلا جرم شبه القرآن والإيمان بالماء لهذا السبب.

الثالث: أنه تعالى سمى القرآن مباركاً فقال: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ [الأنبياء: 50] وقال في الماء: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبْرَكًا﴾ [ق: 9] فلا جرم شبه القرآن بالماء لكون كل واحد منهما مباركاً.

الرابع: أن الماء شفاء للنفوس والقرآن شفاء للقلوب قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا وَأَنْزَلْنَا فِيهِ الرِّيحَ كَافًفًا يَمْسَحُ بِهَا لُجُوجَ السَّمَاءِ﴾ [الشورى: 32] فهو شفاء لقلوبهم ورحمة لذنوبهم.

الخامس: كما أنه تعالى هو الذي تولى إنزال الماء من السماء ولا يقدر عليه أحد سواه فكذلك هو الذي تولى إنزال القرآن ولا يقدر عليه أحد غيره.

السادس: كما أن الله تعالى إذا أنزل المطر من السماء لم يقدر أحد على دفعه فكذلك لما أنزل القرآن من السماء لم يقدر أحد على دفعه وإدخال الباطل عليه ﴿وَإِنَّهُ لَكِنُزُّبٌ عَزِيزٌ﴾ ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ [فصلت: 41 - 42].

السابع: (1) [كما] أن المطر لا يقدر مخلوق أن يحصي عدد قطراته فكذلك القرآن لا يحيط أحد بكمال أسرارهِ ولطائف حقائقهِ.

الثامن: كما أن المطر ينزل من السماء قطرة قطرة ثم يسيل في الأرض نهراً نهراً وبحراً بحراً، فكذلك القرآن تنزل من السماء آية آية نجماً نجماً ثم صار المجموع أنهاراً وبحاراً وفي الخبر أن القرآن بحر عميق لا يدرك قعره.

(1) السابع من هنا إلى قوله قيل لا يستكمل العبد الخ ساقط .

التاسع: كما أن المطر لو نزل من السماء دفعة واحدة لقلع الأشجار وخرّب الديار وكان الفساد فيه أكثر من الصلاح فكذلك القرآن لو نزل جملة واحدة لضلت فيه الأفهام ولتاقت فيه الأوهام قال الله تعالى: ﴿لَوْ أَرْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: 21].

العاشر: كما أن الله تعالى يحيي الأرض بعد موتها بالمطر فكذلك أحيا القلوب الميتة بالقرآن، قال تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: 122].

الحادي عشر: كما أن المطر واحد ثم أنه يقع على الأرض فيخرج منه الورد والريحان وعلى أرض أخرى فيخرج منه الشوك والسّم فكذلك القرآن يقع على قلوب المطيعين فيخرج منها ورد العبودية وريحان الطاعة ويقع على قلب الكافر فيخرج منه سم الكفر وشوك المعصية، قال الله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ [البقرة: 26].

الثاني عشر: أن في الماء النازل من السماء غنية عن جميع المياه، فكذلك في القرآن غنية عن جميع الكتب والعلوم.

الثالث عشر: أن الماء الكثير إذا انغمس فيه من لا يحسن السباحة يهلك، فكذلك القرآن إذا تكلم فيه أحد بغير علم هلك. قال عليه السلام: «من فسّر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار».

الرابع عشر: كما أن الشرب فوق الكفاية يضر ولا ينفع فكذلك القرآن فوق الفهم والفتنة يضر ولا ينفع، قال عليه السلام: «أمرت أن أكلّم الناس على قدر عقولهم».

الخامس عشر: إذا نزل المطر زال القحط وظهر النبات والغذاء والفواكه فكذلك كان قبل نزول القرآن ظهر قحط الدين فلما نزل القرآن زال القحط في الدين وظهر أنواع الغذاء والفواكه للروح وهو بيان التوحيد والنبوة والشرائع.

السادس عشر: كما أن الماء يطفىء النار فكذلك القرآن والإيمان يطفىء عن المؤمن الذي هو حامل القرآن نار جهنم.

النوع الخامس: من الأشياء التي شبّه الله تعالى بها الإيمان والقرآن: الحبل، قال الله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: 103] ووجه المشابهة من وجوه:

الأول: أن من أراد أن يصعد من الأسفل إلى العلو وخاف من الانزلاق فإذا تمسك بالحبل أمن من ذلك الخوف، فالعبد إذا أراد أن يصعد من سفلى البشرية إلى علو عالم الجلال والكبرياء ويخاف أن ينزلق قدم عقله فإذا تمسك بالقرآن أمن منه .

الثاني: أن الأعمى إذا أراد الذهاب إلى موضع فإن كان بين مكانه وبين ذلك الموضع حبل مشدود تمسك بذلك الحبل فيصير بذلك فارغاً من غير خوف، فكذلك العقول البشرية كالعمى في سلوك سبيل التوحيد والمعرفة فإذا تمسكوا بالقرآن أمنوا من الخوف .

الثالث: أن من سقط في البئر فطريق تخليصه أن يرسل إليه حبل ليتعلق به ويصعد وينجو من الهلاك، فالأرواح البشرية وقعت في هاوية عالم الأجسام فالملك الرحيم أرسل إليهم حبل القرآن فمن تعلق به وصعد نجا، ومن لم يتعلق به بقي في بئر الظلمات وكان من الهالكين .

النوع السادس: من الأشياء التي شبه الله تعالى بها الإيمان شجرة الزيتون .

قال تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغٍ لِّلْأَكْلِينَ﴾ [المؤمنون: 20] وذكروا في تشبيه القرآن أقوالاً:

الأول: أنه تعالى إنما شبه الإيمان بهذه الشجرة لأن الشجرة في أكثر الأمر إنما تنبت في الأمكنة المطهرة فكذلك المعرفة لا تستقر في كل قلب بل في القلوب المطهرة .

الثاني: أن شجرة الزيتون يتولد من ثمرتها ذلك الدهن الذين هو في غاية الصفاء، فكذلك قلب المؤمن يتولد منه الإيمان والمعرفة وهما أصفى الأنوار وأشرفها .

واعلم أن الله تعالى وعد المؤمنين بعشر كرامات:

الأولى: المغفرة قال الله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: 38] والمعنى إن قبلوا الإيمان وتركوا الكفر .

وثانيها: الأمن قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: 82] .

﴿وَالثَّالِثَا﴾: الهداية قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ [يونس: 9].

رابعها: الزيادة قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمُتَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: 26].

وخامسها: الفلاح قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: 5] وقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: 1].

وسادسها: التثبيت قال الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [إبراهيم: 27].

وسابعها: الشفاعة قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [طه: 109] يعني قول لا إله إلا الله.

وثامنها: إصلاح الأعمال، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ إلى قوله ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ [الأحزاب: 70 - 71].

وتاسعها: البشارة قال تعالى: ﴿وَأَبَشِّرُوا بِالْجَنَّةِ﴾ [فصلت: 30].

وعاشرها: سمع كلام الله ورؤيته قال تعالى: ﴿سَلَّمَ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَجِيمٍ﴾ [يس: 58] ﴿وَجُوهٌ يُّوَمِّدُونَ نَاصِرَةٌ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِيهَا نَاطِرَةٌ﴾ [القيامة: 22 - 23] وأما الخاتمة فمن وجوه:

الأول: قال بعضهم: عجباً لمن عرفك كيف يخلو قلبه عن ذكرك، وكيف يكون همّ نفسه وولده أكبر من همّ مناجاتك، وكيف يفرح بغير إحسانك، وكيف لم يطلب الغنى [و] التعزز بك، وكيف لم يطلب الكفاية في صدق التوكل عليك، وكيف لم يعد البلاء في طاعتك أعظم أنواع السعادات، وكيف لم تشغله معرفتك عن معرفة غيرك، وكيف لم يهن على قلبه مصائب الدنيا، وكيف لم يطلب راحته وروحه بتفويض أموره إليك وكيف يطلب لذة العيش في غير وقت المعرفة وكيف يستلذ بما يشغله عنك، وكيف يؤثر شهوة الدنيا مع سرعة فنائها على محبتك، وكيف يغفل عنك وهو يعلم أنك لا تغفل عنه.

والثاني: قال مقداد بن حسين: من أقبل على الدنيا أحرقتة بنيرانها يعني الحرص فصار رماداً، ومن أقبل على الآخرة أحرقتة نيرانها يعني نار الخوف فصار سبيكة ذهب ينتفع به [و] من أقبل على الله أحرقتة نار التوحيد والمحبة فصار جوهرة نفيسة فلا قيمة لها.

والثالث⁽¹⁾: لا يستكمل العبد حقيقة الإيمان حتى يكون خيره مأمولاً وشره مأموناً وحتى تكون الضعة أحب إليه من الرفعة، والفقر أحب إليه من الغنى، والذل في الله أحب إليه من العزّ فيما سواه، ويستكثر القليل من عمل غيره ويستقلّ الكثير من عمل نفسه، ولا يرى⁽²⁾ أحداً إلا ظن أنه خير منه.

قال لقمان لابنه: يا بني، الإيمان⁽³⁾ سبع حقائق لكل حقيقة منها حقيقة⁽⁴⁾، فالحقائق السبع اليقين والمخافة والمعرفة والهدى والعمل والتفكر والورع، فحقيقة اليقين الصبر، وحقيقة الخوف الطاعة، وحقيقة المعرفة الإيمان، وحقيقة الهدى البصيرة، وحقيقة العمل⁽⁵⁾ النية، وحقيقة التفكر الفطنة، وحقيقة الورع القرار.

والخامس⁽⁶⁾: قيل أركان الإيمان أربعة: توحيد بلا حدّ، وذكر بلا لبث، وحال بلا نعت، ووجد بلا وقت، ومعنى قولنا حال بلا نعت يصير بحيث لا يضيف حالاً من الأحوال الرفيعة إلا ويكون حاصللاً له لأنه لو لم يكن حاصللاً لكان غائباً وقبل ذكر الغائب غيبة.

والسادس: قال عليّ ؑ: أربعة خصال من كنّ فيه فهو مؤمن: إذا قال صدق وإذا وعد وفى وإذا أوّتمن أدى وإذا عاهد لم يغدر.

والسابع: قال الجنيد: المؤمن كالأرض يطبق حمل كل شيء، وكالمطر إذا سقط سقى كل شيء، والتحقيق فيه أنه في جميع أحواله نظر إلى الله تعالى وهو لا ينظر من يعامل ولكنه ينظر لأجل من يعامل فلا جرم يستوي الكل عنده.

الثامن: قال يحيى بن معاذ⁽⁷⁾: الإيمان نقيّ فلا تدنّسه بأثامك، والليل طويل فلا تقصره بمنامك، والأيام قصيرة فلا تخلها عن صيامك. وقال⁽⁸⁾ أيضاً: إذا لم يكن الإيمان هادماً للسيئات كما أن الكفر هادم للحسنات فما فضل الإيمان؟

(1) والثالث في (ب) قيل.

(2) يرى في (ب) رأى.

(3) الإيمان في (ب) للإيمان.

(4) حقيقة في (ب) حق.

(5) العمل في (ب) العلم وهو سهو من الناسخ.

(6) والخامس من هنا إلى قوله قال يحيى بن معاذ ساقط من (ب).

(7) معاذ في (ب) الرازي.

(8) وقال أيضاً من هنا إلى قوله والعاشر قال إلخ ساقط من (ب).

التاسع: قال سهيل بن عبد الله: المؤمن بين خمسة أعداء: نفس تنازعه، ومناقق يبغضه، وشيطان يغويه، ومؤمن يحسده، وكافر يقاتله.

العاشر: قال أبو بكر الوراق: للمؤمن أربع علامات: كلامه ذكر، وصمته فكر، ونظره عبرة، وعمله طاقة.

الحادي عشر⁽¹⁾: قال أبو بكر الواسطي في معنى قول معاذ: تعالوا نؤمن ساعة، أي حتى نخرج من الإرادات والمنازعات لأن كل إرادة الإنسان على خلاف إرادة الحق فهي منازعة مع الربوبية.

الثاني عشر: قال أبو يزيد: إلهي إنك خلقت هذا الخلق بغير علمهم وقلوبهم أمانة بغير علمهم وإرادتهم، فإن لم تغنهم فمن يغنيهم؟

(الثالث عشر): قال ﷺ: «المؤمن من تكون نفسه منه في عناء والناس منه في راحة».

(1) الحادي عشر من هنا إلى قوله الثالث عشر ساقط من (ب).

الفصل الخامس: (1) في شرح المباحث المتعلقة بكلمة لا إله إلا الله

وهي من وجوه:

البحث الأول:

زعم جماعة من النحويين أن هذا الكلام فيه حذف وإضمار ثم ذكروا فيه وجهين:

أحدهما: التقدير لا إله لنا إلا الله.

والثاني: لا إله في الوجود إلا الله.

واعلم أن هذا الكلام غير سديد (أما الأول) فلأنه لو كان التقدير: لا إله لنا إلا الله لم يكن هذا الكلام مفيداً لتوحيد الخلق إذ يحتمل أن يقال: هب أنه لا إله لنا إلا الله فلم قلت أنه لا إله لجميع المحدثات والممكنات إلا الله ولهذا السبب أنه تعالى لأنه لما قال: ﴿وَاللَّهُ كَرِيمٌ إِنَّهُ وَجِدٌ﴾ قال: بعده ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ لأنه لما قال: وإلهكم إله واحد بقي لسائل أن يسأل ويقول: هب أن إلهنا واحد فلم قلت أن إله الكل واحد؟ فلأجل إزالة هذا السؤال قال بعده لا إله إلا هو ولو كان المراد من قول لا إله إلا هو الأول كان هذا تكراراً محضاً (وأما الثاني) وهو قولهم التقدير لا إله في الوجود إلا الله فنقول: وأي حامل يحملكم على التزام هذا الإضمار بل نقول حمل الكلام على ظاهره أولى من ذلك الإضمار الذي ذكرتم وذلك لو أننا ألزمتنا ذلك الإضمار كان معناه لا إله في الوجود إلا هو فكان هذا نفياً لوجود الإله الثاني أما لو أجرينا الكلام على ظاهره كان هذا نفياً لماهية الإله الثاني، ومعلوم أن نفي الماهية أقوى في إثبات التوحيد من نفي الوجود فثبت أن إجراء الكلام على ظاهره أولى.

(1) الفصل الخامس من هنا إلى قوله قال حاتم الأصم ساقط من (ب).

فإن قيل: نفي الماهية غير معقول فإنك إذا قلت: السواد ليس بسواد كنت قد حكمت بأن السواد انقلب إلى نقيضه وصيرورة الشيء عن نقيضه غير معقول، أما إذا قلت: السواد غير موجود كان هذا كلاماً معقولاً فلماذا السبب أضمرنا فيه الإضمار، والجواب قولكم: نفي الماهية غير معقول، قلنا: هذا باطل فإنك إذا قلت: السواد ليس بموجود فقد نفيت الوجود لكن الوجود من حيث هو وجود ماهية فإذا نفيت الماهية المطلقة نفيت الماهية المسماة بالوجود، وإذا كان كذلك صار الماهية أمراً معقولاً، وإذا عقل ذلك فلم لا يجوز إجراء هذه الكلمة على ظاهرها؟ فإن قلت: فإنك إذا قلت: السواد ليس بموجود فإنك ما نفيت الماهية وما نفيت الوجود أيضاً وإنما نفيت موصوفية الماهية بالوجود فنقول: موصوفية الماهية بالوجود هل هي أمر مغاير للماهية وللوجود أم لا؟ فإن كانت مغايرة لهما كان لذلك المغاير ماهية فكان قولنا: السواد ليس بموجود نفيًا لتلك الماهية المسماة بالموصوفية وحينئذ يعود الكلام المذكور، وأما إذا قلنا: أن موصوفية الماهية بالوجود ليست أمراً مغايراً للماهية وللوجود امتنع توجيه النفي إليها وإذا امتنع ذلك بقي النفي متوجهاً إما إلى الماهية وإما إلى الوجود، وحينئذ يحصل غرضنا من أن الماهية يمكن نفيها وإذا كان الأمر كذلك صح أن قولنا: لا إله إلا الله حق وصدق من غير حاجة إلى إضمار.

البحث الثاني:

قال النحويون: قولنا لا إله إلا هو، ارتفع هو لأنه بدل من موضع لا مع الاسم، وبيانه أنك إذا قلت: ما جاءني رجل إلا زيد فقولك: إلا زيد مرفوع بالبدلية لأن البدل هو الإعراض عن الأول والاجتزاء بالثاني، فصار التقدير: ما جاءني إلا زيد وهذا معقول لأنه يفيد نفي المجيء عن الكل إلا عن زيد، وأما قوله: جاءني القوم إلا زيداً فهانها البدلية غير ممكن لأنه يصير التقدير: جاءني إلا زيداً وذلك يقتضي أنه جاءه كل أحد إلا زيداً وذلك محال فظهر الفرق.

البحث الثالث:

اتفق النحويون أن محل إلا في هذه الكلمة محل غير، والتقدير: لا إله غير الله، وهو قول الشاعر:

[وكل أخ مفارقه أخوه لعمر أبيك إلا الفرقدان]

المعنى كل أخ غير الفرقدين فإنه يفارقه أخوه، قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ قيل: التقدير لو كان فيهما آلهة غير الله لفسدتا والذي يدل على صحة ما قلناه أنا لو حملنا إلا على الاستثناء لم يكن قولنا: لا إله إلا الله توحيداً محضاً لأنه يصير تقدير الكلام . لا إله يستثنى عنهم الله فيكون هذا نفياً لآلهة يستثنى عنهم ولا يكون نفياً لآلهة لا يستثنى عنهم الله، بل عند من يقول بدليل الخطاب يكون إثباتاً لذلك وهو كفر، فثبت أنه لو كانت كلمة إلا محمولة على الاستثناء لم يكن قولنا لا إله إلا الله توحيداً محضاً ولما اجتمعت العقلاء على أنه يفيد التوحيد المحض وجب حمل إلا على معنى غير حتى يكون معنى الكلام لا إله غير الله .

البحث الرابع:

قال جماعة من الأصوليين: الاستثناء من النفي لا يكون إثباتاً، واحتجوا عليه بوجهين:

الأول: أن الاستثناء مأخوذ من قولك: ثبت الشيء عن وجهته إذا صرفته عنها، فإذا قلت: لا عالم فهذا أمران .

أحدهما: الحكم بهذا العدم والثاني نفس هذا العدم، ثم إذا قلت عقبه: إلا زيد فهذا الاستثناء يحتمل أن يكون عائداً إلى حكمك ذلك العدم ويحتمل أن يكون عائداً إلى نفس ذلك العدم فإن كان عائداً إلى الحكم بالعدم، لم يلزم تحقيق الثبوت لأن بسبب الاستثناء يزول الحكم بالعدم وعند زوال الحكم بالعدم يبقى المستثنى مسكوتاً عنه غير محكوم عليه لا بالنفي ولا بالإثبات وحينئذ لا يلزم الثبوت أما إن كان تأثير الاستثناء في صرف العدم ومنعه فحينئذ يلزم تحقيق الثبوت لأنه لما ارتفع العدم وجب حصول الوجود بالضرورة لأنه لا واسطة بين النقيضين إذا ثبت هذا فنقول: عود الاستثناء إلى الحكم بالعدم أولى من عوده إلى نفس العدم ويدل عليه وجهان:

الأول: أن الألفاظ وضعت دلالة على الأحكام الذهنية لا على الموجودات الخارجية، فإنك إذا قلت العالم قديم فهذا لا يدل على كون العالم قديماً في نفسه وإلا لكتنا إذا قلنا العالم قديم والعالم حادث لزم كون العالم قديماً وحادثاً وذلك محال، بل هذا الكلام يدل على حكمك بقدم العالم، وإذا كانت الألفاظ دالة على

الأحكام الذهنية لا على الموجودات الخارجية كان صرف ذلك الاستثناء إلى الحكم بالعدم أولى من صرفه إلى نفس ذلك عدم.

الوجه الثاني: في بيان أن عود الاستثناء إلى الحكم بالعدم أولى من عوده إلى نفس ذلك عدم، وذلك لأن عدم الشيء في نفسه ووجوده لا يقبل تصرف هذا العامل بل القابل لتصرفه هو حكمه بذلك الوجود والعدم، وإذا كان كذلك كان عود الاستثناء إلى الحكم أولى من عوده إلى المحكوم به.

الحجة الثانية في بيان أن الاستثناء من النفي ليس بإثبات هو أنه جاء في الحديث والعرف صور كثيرة في الاستثناء في النفي مع أنه لا يقتضي الثبوت قال الطحاوي: «لا نكاح إلا بولي ولا صلاة إلا بطهور»⁽¹⁾.

ويقال في العرف: لا عزّ إلا بالمال، ولا مال إلا بالرجال، ومرادهم من الكل مجرد الاشتراط، أقصى ما في الباب أن يقال: (قد)⁽²⁾ ورد هذا اللفظ في صورة أخرى وكان المراد أن يكون المستثنى من النفي إثباتاً، إلا أننا نقول: أنه لا بدّ وأن يكون مجازاً في إحدى الصورتين، إلا أننا نقول: إن قلنا: أنه لا يقتضي أن يكون الخارج من النفي إثباتاً فحيث أفاد ذلك احتمال أن تكون تلك الزيادة مستفادة من دليل آخر، ولا يكون ذلك تركاً لما دلّ اللفظ عليه.

فإن قلنا: إنه يقتضي أن يكون الخارج من النفي إثباتاً، فحيث لا تفيد ذلك لزمننا ترك العمل [بما]⁽³⁾ يكون اللفظ دليلاً عليه، ومعلوم أن الأوّل أولى؛ لأنّ إثبات الأمر الزائد بدليل زائد ليس فيه مخالفة الدليل، أما ترك ما دلّ الدليل عليه يكون مخالفاً للدليل فثبت بما ذكر أن الاستثناء من النفي لا يكون إثباتاً، وإذا ثبت هذا كان قولنا: لا إله إلا الله تصريحاً بنفي سائر [الآلهة]⁽⁴⁾، ولا يكون إترافاً بوجود الله، وإذا كان كذلك لم يكن مجرد هذا القول كافياً في صحة الإيمان وههنا إشكال آخر وهو:

(1) هو حديثان، الأول عند أحمد وأصحاب السنن الأربعة والحاكم من حديث أبي موسى وابن ماجه من حديث ابن عباس، والثاني بلفظ آخر عند أحمد وأبي داود وابن ماجه والحاكم من حديث أبي هريرة.

(2) [قد] في الأصل فقد.

(3) [بما] في الأصل ما.

(4) [الآلهة] في الأصل الإلهية.

إنّا قد دللنا على أنّ كلمة إلا بمعنى غير في غير هذا الموضوع وإذا كان كذلك كان قولنا: لا إله إلا الله [معناه]⁽¹⁾ لا إله غير الله، فيصير المعنى نفي إله يغير الله، ولا يلزمهم من نفي ما يغير الشيء إثبات ذلك الشيء وحينئذ يعود.

والجواب من وجهين:

الأول: أن إثبات الإله ﷻ متفق عليه بين جميع العقلاء بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: 25]، وكان ذلك مفروغاً منه متفقاً عليه إلا أنهم كانوا يثبتون الشركاء والأنداد والأضداد، فكان المقصود من هذه الكلمة نفي الأضداد والأنداد، فأما القول بإثبات الإله للعالم فذلك من لوازم العقول.

والثاني: إن سلمنا أن هذه الكلمة كما دلت على نفي سائر الآلهة دلت على إثبات إلهية الله تعالى، إلا أننا نقول هذه الدلالة تكون حاصلة بوضع الشرع لا بمفهوم أصل اللغة فهذا تمام القول في هذا المقام.

البحث الخامس:

اعلم أنه يجوز أن يقال: لا رجل في الدار وأن يقال: لا رجل في الدار.

أما الوجه الأول: فإنه يوجب نفي الرجال بالكلية، والدليل عليه: أن قولنا: لا رجل يقتضي نفي ماهية الرجل ونفي الماهية يقتضي انتفاء كل أفراد الماهية؛ لأنه لو ثبت فرد من أفراد الماهية لثبت الماهية ضرورة؛ وأنه إن ثبت فرد من أفراد الماهية ثبتت الماهية لا محالة.

وأما قولنا: لا رجل في الدار فهو نقيض قولنا: لا رجل في الدار، ولكن قولنا لا رجل في الدار يفيد ثبوت رجل واحد، فقولنا: لا رجل في الدار يجب أن يفيد عموم النفي حتى يتحقق التناقض بين القولين.

فالحاصل، أن قولنا: لا رجل أقوى في الدلالة على عموم النفي من قولنا: لا رجل مع أن كل واحد منهما يفيد عموم النفي. ولأجل كون كل واحد منهما يفيد العموم قوى قوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: 2] بالقراءتين وكذا قوله: ﴿فَلَا رَفْكَ وَلَا

(1) [معناه] في الأصل.

فُسُوكَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴿١٩٧﴾ [البقرة: 197] ولأجل أن البناء على الفتح أقوى في الدلالة على العموم اتفقوا عليه في قولنا: لا إله إلا الله.

البحث السادس:

ومن الناس من يقول: إن تصور الإثبات مقدم على تصور النفي بدليل أن الواحد منا يمكنه أن يتصور الإثبات وإن لم يخطر بباله معنى النفي والعدم، ويمتنع عليه أن يتصور العدم والنفي إلا وقد تصور الإثبات أولاً؛ وذلك لأن العدم المطلق غير معقول بل العدم لا يُعقل إلا إذا أُضيف إلى أمر معين، فيقال: عدم الدار وعدم الغلام؛ فثبت أن تصور الإثبات أصل ومتقدم وتصور النفي متأخر وفرع.

وإذا ثبت هذا: فما السبب في أن جعل النفي الذي هو الفرع مقدماً والإثبات الذي هو الأصل مؤخراً؟

والجواب: أن في تقديم النفي على الإثبات ههنا أغراضاً:

الأول: أن نفي الربوبية عن غيره ثم إثباتها له أكد في الإثبات من إثباتها له من غير نفيها عن غيره كما أن قول القائل: ليس في البلد عالم غير فلان أقوى في باب المدح من قولنا: فلان عالم البلد.

الثاني: أي لكل إنسان قلباً واحداً والقلب الواحد لا يتسع باشتغالٍ بشيئين دفعة واحدة فبقدر ما يبقى مشغولاً بأحد الشيئين يبقى محروماً عن الشيء الثاني، فقوله: لا إله إلا الله إخراج لكل ما سوى الله عن القلب حتى إذا صار القلب خالياً عن كل ما سوى الله ثم حضر فيه سلطان: إلا الله أشرق نوره إشراقاً تاماً وكمل استيلاؤه عليه كمالاً قوياً.

الثالث: أن النفي الحاصل بلا يجري مجرى الطهارة والإثبات [الحاصل بيلاً]⁽¹⁾ يجري مجرى الصلاة، فكما أن الطهارة مقدمة على الصلاة فكذا أوجب تقديم (لا إله) على قولنا (إلا الله)، ويجري مجرى تقديم الاستعاذة على القراءة فكما كنا هذه الاستعاذة مقدمة على قراءة القرآن فكذا ههنا.

وأيضاً من أراد أن يحضر الملك في بيته وجب عليه أن يقدم تطهير البيت عن الأقدار فكذا ههنا.

(1) [الحاصل بيلاً] في الأصل بيلاً الحاصل.

وعن هذا قال المحققون: أن النصف الأول من هذه الكلمة ينظف الأسرار، والنصف الثاني جلاله الأنوار عن حضرة الملك الجبار.

والنصف الأول فناء والثاني بقاء، والنصف الأول انفصال والثاني اتصال، والنصف الأول إشارة إلى قوله: ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ [الذاريات: 50] والنصف الثاني إشارة إلى قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ تَمَّ ذَرَهُمْ﴾ [الأنعام: 91].

البحث السابع:

لقائل أن يقول: أن من عرف أن للعالم صانعاً قادراً قاهراً عالماً موصوفاً بجميع الصفات المعتبرة في الإلهية من الصفات السلبية والاثبتية فقد عرف الله تعالى معرفة تامة ثم إن علمه بعدم الإله الثاني لا يزيده علماً بحقيقة ذات الإله وصفاته، لأن عدم الإله الثاني ليس عبارة عن وجود الإله الأول ولا صفة من صفاته، ثم إنا أجمعنا على أن علمه بذات الإله وصفاته لا يكفي في تحقيق النجاة، بل ما لم يعلم عدم الإله الثاني لا يحصل العلم المعبر في النجاة، فما السبب في أن كانت معرفة ذات الله تعالى وصفاته غير كافية في تحقيق النجاة، بل كان العلم بعدم الثاني معتبراً في تحقيق النجاة.

البحث الثامن:

أن المكلف إذا تمّ النظر والاستدلال في معرفة الله تعالى، ثم كما تمّ مات ولم يجد من الوقت ما أمكنه أن يقول فيه: لا إله إلا الله فهنا لا شك أنه يموت مؤمناً؛ لأنه أدى ما وجب عليه ولم يجد مهلة التلطف بهذه الكلمة. أمّا إذا تمّ النظر والاستدلال في معرفة الله ووجد من الوقت ما أمكنه أن يقول فيه: لا إله إلا الله ثم إنه لم يقل ثم مات فهذا الشخص هل مات مؤمناً أم لا؟

من الناس من قال: إنه مات كافراً لأن صحة الإيمان متوقفة على التلطف بهذه الكلمة عند القدرة عليه.

ومن الناس من قال: إنه مؤمن لأجل أنه حصل له العرفان التام، وفاسق لأجل أنه كان مأموراً بذكر هذه الكلمة ولم يذكرها⁽¹⁾.

(1) ولم يذكرها بهامش (أ) نسخة ثانية هي: وما ذكرها.

والدليل على أنه مؤمن قوله ﷺ: «يُخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان»⁽¹⁾ وهذا الشخص قلبه مملوء من الإيمان فكيف لا يخرج من النار؟!

البحث التاسع:

من الناس من قال تطويل المدة في كلمة (إله)⁽²⁾ من قولنا: لا إله إلا الله مندوب إليه مستحسن؛ لأنّ المكلف في زمان التمديد يستحضر في ذهنه جميع الأضداد والأنداد وينفيهما ثم بعد ذلك يعقّب هذه الكلمة بقوله إلا الله فيكون ذلك أقرب إلى الإخلاص والكمال، ومنهم من قال: ترك التمديد أولى، لأنه ربّما مات في زمن التلفظ بلا قبل الانتقال إلى كلمة إلا.

والجواب: أن بتقدير أن يكون للعالم إلهان فالعبد لا يعلم أنه عبد لهذا الإله أو عبد لذلك الإله أو عبد لهما معاً، فحينئذ لا يكون جازماً بكونه مشتغلاً بشكر مولاه وخالقه بل يجوز أن تكون عبادته لغير خالقه، ومتى كان الأمر كذلك لم يكن جازماً في تلك العبودية وتلك الطاعة، أما إذا عرف أنه لا إله للعالم إلا إله واحد فحينئذ يكون جازماً بكونه مشتغلاً بعبودية مولاه وخالقه، فلهذا السبب لم تحصل النجاة والفوز بالدرجات إلا معرفة التوحيد.

والذي عندي: أن المتلفّظ بهذه الكلمة إن كان يتلفّظ بها لينتقل بها من الكفر إلى الإيمان فترك التمديد أولى حتى يحصل الانتقال من الكفر إلى الإيمان على إسرار الوجوه وإن كان المتلفّظ بها مؤمناً وإنما يذكرها لتجديد هذه الكلمة فالتمديد أولى؛ حتى يحصل في زمن التمديد صور الأضداد والأنداد على التفصيل في خاطر، وينفيها ثم يعقبها بقوله: إلا الله.

البحث العاشر:

اعلم أن الناس في قول هذه الكلمة على مراتب وطبقات: وأدناها طبقة: من قالها ليحققن بها دمه فأحرز ماله على ما اقتضاه موجب قوله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها».

(1) رواه أحمد (3/94-95)، والنسائي (8/112-113)، والترمذي (2725).

(2) [إله] في الأصل (لا).

وهذه درجة يشترك فيها المخلصون والمنافقون، وكل من تعلق بهذه الكلمة نال من بركتها وأحرز حظاً من فوائدها، وإن طلب بها الدنيا نال الأمن فيها والسلامة من آفاتها، وإن قصد بها الآخرة جمع بين الحظين وأحرز بها السعادة في الدارين.

والطبقة الثانية: الذين ضموا إلى القول باللسان الاعتقاد بالقلب على سبيل التقليد.

واعلم أن الاعتقاد التقليدي لا يكون علماً وذلك لأنَّ العقد ضدَّ الانحلال والانسراح، والعلم عبارة عن انسراح الصدر، قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِإِسْلَامٍ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر: 22].

فثبت أن صاحب التقليد لا يكون عارفاً ولا عالماً، وهل يكون مسلماً؟ فيه الخلاف المشهور بين الأمة.

الطبقة الثالثة: الذين ضموا إلى الاعتقاد بالقلب معرفة الدلائل الإقناعية المقوية لذلك الاعتقاد، إلا أن تلك الدلائل لا تكون برهانية يقينية بل إقناعية ظنية.

الطبقة الرابعة: الذين أثبتوا تلك العقائد بالدلائل القطعية والبراهين اليقينية. إلا أنهم لا يكونون من أرباب المشاهدات والمكاشفات، ولا من أصحاب التجلي وأرباب مطالعة (الأنوار) الإلهية.

ثم اعلم أن الإقرار باللسان له درجة واحدة، أما الاعتقاد بالقلب فله درجات مختلفة بحسب قوة الاعتقاد وضعفه وعدمه ودوامه، وكثرة تلك الاعتقادات وقلتها؛ فإن المقلد ربما كان مقلداً في مجرد أن الله تعالى واحد وربّما زاد عليه، فكان مقلداً في ذلك وفي أن صانع العالم عالم وقادر.

واعلم أن كلما كان وقوف الإنسان على هذه المطالب أكثر، كان تشويش أمر التقليد عليه أكثر؛ وذلك لأنَّ القلب إذا حصل له شعور بهذه المطالب وحصل له وقوف [على] مشاهدة المباحث مال إلى العلم وكره التقليد فتعسر عليه التقليد.

وأما المرتبة الثالثة: وهي تقوية الاعتقاد بالدلائل الإقناعية فمراتب الخلق فيها متفاوتة وغير مضبوطة.

وأما المرتبة الرابعة: وهي الترقى من الدلائل الإقناعية إلى البرهانية القطعية فالأشخاص الذين يكونون واصلين إلى هذه الدرجة يكونون في غاية القلّة ونهاية الندرة؛ لأنّ ذلك يتوقف على معرفة شرائط البراهين واستعمالها في المطالب وذلك في غاية العزّة.

وأما المرتبة الخامسة: وهم أصحاب المشاهدات والمكاشفات فنسبتهم في القلّة إلى أصحاب البراهين القطعية كنسبة أصحاب البراهين القطعية إلى عوام الخلق.

واعلم أنّ عالم المكاشفات لا نهاية لها؛ لأنّه عبارة عن سفر العقل في مقامات جلال الله ومدارج عظمته، ومنازل كبريائه وقده.

ولما كان لا نهاية لهذه المقامات فكذلك لا نهاية للسفر في تلك المقامات.

واعلم أن الإنسان إذا انكشف له أسرار لا إله إلاّ الله أقبل على الله وأخلص في عبادته ولم يلتفت إلى أحد سواه، فلا يرجو غيره ولا يخاف غيره، ولا يرى الضرّ والنفع إلاّ منه فانقطع بالكلية ممّن دونه وتبرأ من شرك الباطن كما قد تبرأ من شرك الظاهر، وذلك كلّه موجب كلمة التوحيد، ولهذا السبب لما قال لمحمد ﷺ: ﴿فَاعَلَّ أَنْتُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ قال بعده: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيِكُمْ﴾ [محمد: 19]، والمعنى - والله أعلم - أنّ الأمر بالاستغفار في تعقب وقع في موجب كلمة لا إله إلاّ الله إمّا لغفلة تحول دونه أو لعارض شغل يعوقه عنه، وهو معنى قوله ﷺ: «إنّه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة» وقد روى (مائة مرة).

وفي الحديث وجوه:

الأول: أن المراد ما يغشى قلبه من غفلة أو يعرضه من فترة بحكم الطبع البشري فعند ذلك يفرع إلى الاستغفار.

الثاني: أنه عليه أفضل الصلاة والسلام كان أبداً في الترقى، فإذا انتقل إلى درجة نظر إلى الدرجة التي انتقل عنها فكان يستحقرها في العبودية فكان يستغفر الله منها.

الثالث: أنّه ربما لاح له شيء من تجلّي عالم الغيب فيستعظم تلك الدرجة

ويستبهج بها ثم يصير استعظامه لها وابتهاجه بها شاغلاً له عن الاستغراق في المبتهج به فكان يستغفر الله عن ذلك.

الرابع: أنه كلما لاح له شيء من عالم الغيب كان يعلم أن الذي لاح له إنما لاح بقدر قوته وطاقته، وكان يعلم أن قدر عقله وطاقته بالنسبة إلى جلال الله وعلو كبريائه كالعدم فحينئذ يعلم أن الذي لاح له من كمال عالم الغيب بالنسبة إلى ما لم يلح له كالعدم بالنسبة إلى الوجود، وكان يستغفر الله من أن يصفه بما يصل إليه قلبه وعقله وفكره وذكره وخاطره.

الفصل السادس: في فضل المؤمن

اعلم أن الله تعالى سمى المؤمنين ثالث نفسه في عشرة أشياء: في المراقبة والولاية والموالة والصلاة والعزة والطاعة والمشاقة والأذى والالتجاء والشهادة.

(المقام الأول): في المراقبة يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: 105] هدّد المذنبين الحاضرين برؤية المؤمنين كما هدّدهم برؤية نفسه.

وفيه لطائف:

(الأولى): روي أن عمر رضي الله عنه خرج ليلة فسمع امرأة تقول لابنتها: يا بنتاه قومي، وامزجي الماء باللبن، فقالت: أو ليس قد نهانا عن ذلك أمير المؤمنين قالت: فلا يرانا أمير المؤمنين قالت: بلى ولكن يرانا رب العالمين، فلما سمع عمر ذلك خطبها في الغد لابنه فكان عمر بن عبد العزيز من خير حفدتها.

(الثانية): امرأة شاطرة كانت بمكة قالت: لا أبرح حتى أفتن طاووس اليماني، وكان رجلاً جميلاً فعرضت نفسها عليه مراراً حتى ظنّت أنها أعجبتة فقال طاووس: احضري الليلة فجاء بها إلى المقام فقال: اضطجعي ههنا فقالت: سبحان الله ألا يرى الناس؟ فقال طاووس: أوليس قد يرانا الله في كل موضع؟! فتابت.

(الثالثة): قال أبو عبد الرحمن العتبي: خرجت ليلة فإذا أنا بجارية مليحة فأردتها فقالت: وَيَلَكَّ أما لك زاجر من عقل إن لم يكن ناهٍ من الدين؟ فقلت: إنه لا يرانا إلا الكواكب، فقالت: وأين مكوكبها؟

(الرابعة): قال حاتم الأصم: راع نفسك في ثلاثة أوقات: إذا عملت بالجوارح فاذا نظر الله إليك، وإذا قلت بلسانك فاذا سمع الله عليك، وإذا كنت ساكناً فاذا علم الله فيك لأنه تعالى قال: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: 46].

(الخامسة)⁽¹⁾: ثلاثة نفر حضروا عند بعض الزهاد وقالوا: أوصنا فقال لواحد: أأنت تقول أنه عالم؟ قال: بلى فقال: إياك أن يعلم منك شيئاً يفضحك به غداً، وقال للثاني: أليس هو بصيراً؟ قال: بلى فقال: إياك أن يراك على عمل تستحي منه يوم القيامة، وقال للثالث: أليس هو سميعاً؟ قال: بلى قال: احذر أن لا يسمع منك شيئاً يردك عن باب رحمته بسببه.

(السادس): قال سفيان: من وجد في نفسه ثلاثة أشياء فليحكم عليها بالسعادة: الهيبة للعزیز الجبار، والحرمة للنبي المختار والحياء من الأبرار والأخيار.

(المقام الثاني)⁽²⁾: **الولاية**، وأنه تعالى جعل المؤمنين ثالث نفسه فيها فقال: ﴿إِنَّمَا وَرِثَكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة: 55] قيل: نزلت في عبد الله بن سلام حين شكى من عداوة اليهود له بعد إسلامه فنزلت. وقال محمد بن إسحاق: نزلت في عبادة بن الصامت قال: يا رسول الله تبرأت من حلف اليهود وتوليت الله ورسوله والمؤمنين عامة. وفيه نكت:

(الأولى): أن يوسف عليه أفضل السلام قال: ﴿أَنْتَ وَلِيٌّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [يوسف: 101] فوجد العزّ والملك بسبب ذلك القول الذي هو قائله، وهاهنا قال الله تعالى للمؤمنين: ﴿إِنَّمَا وَرِثَكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ فأولى أن يرجو المؤمن⁽³⁾ تلك الجنة والمغفرة.

(الثانية): قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَرِثَكُمُ اللَّهُ﴾ يعني حافظكم وناصركم الله ورسوله والمؤمنون، ثم قال ﷺ: «المؤمن مع من أحب» ثم إن كل مسلم يحب الله فوجب له بحكم ذلك الخبر أن يكون المسلم أبداً مع حفظ الله، فإذا كان حفظ الله لا يفارقني بسبب أني أحب الله فكيف يفارقني حفظ الله مع أن الله وليي وحافظي وناصري.

(الثالثة):⁽⁴⁾ هذه الآية دلت على أن الصحابة رضي الله عنهم يحبوننا لأن الله تعالى جعل

(1) الخامسة من هنا إلى قوله السادس ساقط من (ب).

(2) المقام الثاني من هنا إلى قوله الأولى أن يوسف إلخ ساقط من (ب).

(3) المؤمن في (ب) المؤمنين.

(4) الثالثة من هنا قوله قال عمر بن الخطاب ساقط من (ب).

المؤمنين أولياء لنا وهو قوله: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [المائدة: 55] ثم أكد ذلك بقوله ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: 71] ثم أمرنا بأن نحب الصحابة بدليل قوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْكُمْ هَجْرًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ هَجْرًا﴾ [التوبة: 100] وقوله ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحشر: 10] فثبت بمجموع هاتين الآيتين حصول المحبة بتساوٍ بين الصحابة، والحبيب لا يرضى بعذاب المحبوب فدل ذلك على أن جمهور الصحابة والتابعين وسلف المؤمنين كلهم يكونون شفعاء في ذنوب المذنبين.

(المقام الثالث) الموالاتة: قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَانُ جِبْرِيلَ وَصَلِحَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

[التحریم: 4] فحكم بأن مولى المؤمنين هو الله وجبريل وصالح المؤمنين. ثم أسقط شركة جبريل والمؤمنين فقال: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَانُكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: 78] وقال في حق الكافر: ﴿النَّارُ هِيَ مَوْلَانُكُمْ﴾ [الحديد: 15]، ثم قال: ﴿لَيْسَ الْمَوْلَى وَلَيْسَ الْعَشِيرُ﴾ فمن كان الله مولاه فلا يذل ولا يخزي، ومن كان المؤمنون مواليه فلا يضيع ولا يشقى، قال عمر بن الخطاب ؓ يوم أحد للكفار حيث قالوا: لنا عزى وليس لكم عزى، فقال عمر: لنا مولى وليس لكم مولى، فنزل على وفق قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكُفْرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: 11].

(الثانية): (1) أن الله تعالى سمي النار مولى الكفار فقال: ﴿النَّارُ هِيَ مَوْلَانُكُمْ﴾

وإنما سمي النار مولاهم لأنها لا تتركهم، ولما سمي نفسه مولى المؤمنين فنرجو أن لا يترك إعانتهم ورعايتهم.

(الثالثة): قال بعضهم: من كان مؤدبه ربه لا يعاب، ومن كان ناصره ربه لا

يغلب، ومن كان هاديه ربه لا يضل، ومن كان معينه ربه لا يشقى، ومن كان مولاه ربه لا يضيع ولا يحتاج إلى أحد.

(المقام الرابع): الصلوات، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾

يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلَواتٌ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا ﴿[الأحزاب: 56]، فجعل المؤمنين ثالث نفسه في الصلاة على الرسول ﷺ وها هنا ثلاث نكت:

(1) الثانية من هنا إلى قوله الثانية الصلاة من الله الخ ساقط من (ب) ..

(الأول): جاء في الخبر أنه لما نزلت هذه الآية قال ﷺ: «هتثوني هتثوني»، فقالوا: هنيئاً لك يا رسول الله فما حظنا؟، فنزل قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾ [الأحزاب: 43]⁽¹⁾ والإشارة أنه صلى الله على الرسول عليه أفضل السلام في الدنيا فما ترك المذنبين حتى صلى عليهم أيضاً، فيوم القيامة كيف يترك المذنبين محرومين من المغفرة؟

(الثانية): الصلوات⁽²⁾ من الله على رسوله على أوجه: عام وخاص، وخاص الخاص، والعام: هو قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾ [الأحزاب: 43] والخاص: قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: 157] وخاص الخاص: قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: 56].

(الثالثة):⁽³⁾ جاء في الحديث: «إن لله ملائكة بأيديهم ألواح وقراطيس من فضة وأقلام من ذهب لا يكتبون شيئاً إلا الصلوات عليّ وعلى أهل بيتي» والسبب من هذه الصلوات أن روح الإنسان الضعيفة لا تستعدّ لقبول الأنوار الإلهية فإذا استحكمت العلاقة بين روحه وروح الأنبياء فالأنوار الفاضلة من عالم الغيب على أرواح الأنبياء تنعكس إلى أرواح هؤلاء المُصلّين بسبب الانعكاس، مثال الشمس والطمست المملوء من الماء والسقف معلوم.

(الرابعة): جعل الله أهل نبيه مساوياً له في خمسة أشياء في المحبة، قال تعالى: ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: 31] وقال تعالى في أهل بيته: ﴿قُلْ لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: 23] والثاني في تحريم الصدقة عليهم قال ﷺ: «حرمت الصدقة عليّ وعلى أهل بيتي»⁽⁴⁾.

(والثالث): في الطهارة: قال تعالى: ﴿طه﴾ ﴿مَا أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشَفَىٰ﴾

(1) الحديث لم نعثر عليه فيما لدينا من المراجع.

(2) الصلوات في (ب) الصلاة.

(3) الثالثة من هنا إلى قوله المقام الخامس ساقط من (ب)، والحديث لم نعثر عليه فيما لدينا من المراجع، والظاهر أنه

لا يصح.

(4) لم نعثر عليه بهذا اللفظ ومعناه في الأحاديث الصحيحة.

﴿إِلَّا نَذْكِرْكَ﴾ [طه: 1 - 3] وقال لأهل بيته: ﴿وَيُطَهِّرُكَ تَطْهِيراً﴾ [الأحزاب: 33].

(والرابع): في السلام: قال: (السلام عليك أيها النبي) وقال: في أهل بيته ﴿سَلِّمْ عَلَيَّ إِنْ يَأْسِينِ﴾ [الصفافات: 130].

(والخامس): في الصلوات على الرسول وعلى آله: كما في آخر التشهد.

(المقام الخامس): العِزَّة. قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:

8] فعِزَّةُ الله عِزَّةُ الربوبية، وعِزَّةُ الرسول عِزَّةُ النبوة، وعِزَّةُ المؤمنين عِزَّةُ التلطف بكلمة الإخلاص وهي: (1) لا إله إلا الله، ثم إن كما عِزَّةُ (2) الله وعِزَّةُ الرسول لا يقبلان الذل فكذا عِزَّةُ المؤمنين لا يقبل الذل.

(الثانية) (3): لله عِزَّةُ الإنشاء والتكوين: قال تعالى: ﴿أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ

فَيَكُونُ﴾ [يس: 82] وللرسول عِزَّةُ الدنيا حيث أشار إلى القمر فانشق ببركة دعائه، وللمؤمن عِزَّةُ الإيمان والشهادة ثم إن الأشياء تكونت عند قوله: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ والقمر انشق عند دعاء الرسول فنرجو أن يحصل الغفران والرحمة للمؤمن عند كلمة الشهادة.

(الثالثة): عِزَّةُ المؤمن في أن قيده المعرفة وصيده الجنة ووعده الرؤية، فإذا كان

للعبد المؤمن رباً كافياً وكتاباً شافياً ورسولاً وافياً [اسمه اسم الله] ولساناً شاهداً لله ونفسه طالبة لمرضاة الله وقلبه محل لنظر الله، وسراجه معرفة الله وشهادته محبة الله، وروحه نور الله وبصيرته مشتاقة إلى رؤية الله، فجدير به أن يكون عِزَّةً متصلاً بعِزَّةِ الله.

(الرابعة): لله العِزَّةُ سواء أوجد أو أعدم، وللرسول العِزَّةُ سواء بلغ أو سكت

فكذلك المؤمن له العِزَّةُ سواء أطاع أو عصى.

(الخامسة): لله العِزَّةُ بالولاية: لقوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾

[الأعراف: 196] وللرسول العِزَّةُ أيضاً بالولاية لقوله تعالى: ﴿الَّتِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ

(1) الإخلاص وهي ساقط من (ب).

(2) عِزَّةُ الله في (ب) عِزَّةُ الله.

(3) الثانية من هنا إلى قوله قال علي الخ ساقط من (ب).

أَنْفُسِهِمْ ﴿الاحزاب: 6﴾ وللمؤمنين أيضاً العِزَّةُ بالولاية لقوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: 71].

(السادسة): لله العِزَّةُ بالعلو والعظمة لقوله: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: 255].

وللرسول بالرفعة لقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الانشراح: 4] وللمؤمنين بالقبول والرحمة لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: 53].

(السابعة): لله عِزُّ المعبودية لقوله تعالى: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 92] وللرسول عِزُّ والمتبوعية لقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَمَّا كُنتُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: 158] وللمؤمن عز العبودية لقوله تعالى: ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾ [الزمر: 53].

(الثامنة): لله عِزُّ الاستغناء ﴿وَاللَّهُ الْعَفِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ [محمد: 38] وللرسول عز الأغنياء لقوله تعالى: ﴿وَوَعَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ [الضحى: 8] وللمؤمن عز الغنى لقوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النور: 32] ﴿وَإِنْ يَسْقُرَفَا يُعِنِ اللَّهُ كَلًّا مِنْ سَعَتِهِ﴾ [النساء: 129].

(التاسعة): قال علي ؑ: (من أراد عزاً بغير عشيرة وهيبة بغير سلطان، وغنى بلا مال وحسباً بلا نسب، فيلخرج نفسه من ذل المعصية⁽¹⁾ إلى عز الطاعة).

(العاشرة): قال هارون الرشيد لمنصور بن عمار: من أعقل الناس وأجهلهم وأغناهم وأعزهم؟ فقال: أعقلهم محسن خائف، وأجهلهم مسيء آمن، وأعزهم الأتقياء، وأغناهم القانع⁽²⁾.

(المقام السادس)⁽³⁾ الطاعة: قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا رَسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: 59]. وفيه نكت: روى في الخبر: أني ملك لا أزول فأطعني حتى أجعلك ملكاً لا تزول، وأنني حي لا أموت فأطعني حتى أجعلك حياً لا تموت، وأنني إذا أردت شيئاً قلت له كن فيكون فأطعني حتى أنزلك داراً إذا قلت

(1) ذل المعصية إلخ في (ب) ذل معصية الله إلى عز طاعته.

(2) وأعزهم إلخ في (ب) وأغناهم القانع وأعزهم الأتقياء.

(3) المقام السادس من هنا إلى قوله قال ج من أدى مؤمناً إلخ ساقط من (ب).

لشيء كن فإنه يكون⁽¹⁾.

(الثانية): في الخبر ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن وما رآه المسلمون قبيحاً فهو عند الله قبيح⁽²⁾ وقال عليه السلام: «لا يجتمع أمتي على ضلالة»⁽³⁾.

وقال عليه السلام: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين بعدي عضوا عليها بالنواجذ»⁽⁴⁾ وقال عليه السلام: «اقتدوا بالذين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ»⁽⁵⁾ وقال عليه السلام: «اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر»⁽⁶⁾ وكل ذلك يدل على أنه كما يجب طاعة الله وطاعة رسوله فكذلك يجب طاعة أولي الأمر من المؤمنين وهم العلماء والصالحون.

(الثالثة): قيل بقاء الدنيا بسيف الأمرء ولسان العلماء: فعليك بطاعتها إلا في معصية الله.

(المقام السابع) المشاقفة: قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَاُخِذِ اللَّهُ بِشَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: 13] وقال تعالى في المؤمنين: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: 115] وفيه نكت:

(الأولى): أن الله تعالى ثلاثة بحور عظيمة يهلك العبد فيها إن لم يكن له

(1) لا يوجد فيما لدينا من المراجع.

(2) رواه الخطيب (4/165) مرفوعاً، وفي إسناده سليمان بن عمر والنخعي وهو كذاب، فهو موضوع مرفوعاً من حديث ابن مسعود. لكن رواه أحمد (3600) والطبراني في المعجم الكبير (8582)، والبزاز (30) كشف الأستار على ابن مسعود وهو صحيح موقوفاً على ابن مسعود.

(3) هو حديث صحيح ورد عن جماعة من الصحابة منهم ابن عمر، انظر المعجم الكبير (13623) للطبراني، ومنهم أبو مالك الأشعري انظر المصدر السابق (3440)، وكذلك ابن عباس عند الحاكم (1/116) وأنس عند ابن ماجه (2950) وغيرهم.

(4) يراجع المعجم الكبير للطبراني، الأرقام (597 - 603 و625).

(5) ورد من حديث حذيفة بن اليمان وابن مسعود.

فحديث حذيفة رواه أحمد (5/382 و402)، والترمذي (3742 و3887)، وابن ماجه (97)، والبيهقي (8/153)، وابن حزم في الأحكام (6/81) وحديث ابن مسعود رواه الترمذي (3893)، ولكن ليس في حديثيهما «عضوا عليها بالنواجذ».

(6) هو الحديث قبله.

معتصم يتمسك بها، فجعل جبل التوحيد سبباً للنجاة من الكفر فقال تعالى: ﴿فَقَدِرَ أَسْتَمَسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة: 256] وجعل القرآن سبباً للنجاة عن البدعة لقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ وجعل الإجماع سبباً للنجاة عن الفتن لقوله: ﴿وَيَتَّبِعْ عَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ثم قال: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾.

(الثانية): قال عليه السلام: «سبع من الهدى وفيهن الجماعة من خرج منهن فقد خرج من الجماعة لا تشهدوا على أهل قبلتكم بكفر ولا شرك واتركوا سرائرهم، وصلوا على من تاب من أهل القبلة وصلوا الصلوات الخمس في الجماعة خلف كل بر وفاجر، وجاهدوا مع كل خليفة ولا تخرجوا على أئمتكم بالسيف وادعوا [لهم]⁽¹⁾ بالصلاة ولا تدعوا عليهم وجانبوا الأهواء كلها فإن أولها وآخرها باطل⁽²⁾».

(الثالثة): سئل عن القلب السليم فقال: هو الذي دينه بلا شك، ومذهبه بلا هواء، وعلمه بلا رياء، وبدنه بلا خصم.

(المقام الثامن) في الأذى: نهى عن الأذى للمؤمنين، يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأحراب: 57] إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾.

اعلم أنه تعالى نهى عن إيذاء المؤمن كما نهى عن إيذاء نفسه وإيذاء رسوله ثم أكد ذلك بقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: 83].

وقال: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَمًا﴾ [الفرقان: 63] وقال عليه السلام: «المؤمنون قوم برة وهم المتحابون المتبادلون، والمنافقون قوم فجرة وهم المتقاطعون المتدابرون»،⁽³⁾ وقال عليه السلام لعائشة: «إن الله يبغض الفاحش والمتفحش»⁽⁴⁾ فيه نكت:

- (1) لهم (في الأصل) له.
 - (2) لم نعثر عليه فيما لدينا من المراجع.
 - (3) لم نره فيما لدينا من المراجع.
 - (4) انظر: المعجم الكبير للطبراني (405) من حديث أسامة بن زبير ورواه مسلم، وأحمد (6/135-135 و230)، والبخاري في الأدب المفرد (755) من حديث عائشة.
- ومن حديث سهل بن الحنظلية انظر المعجم الكبير (5616 و5617)، ومن حديث عبد الله بن عمرو عند أحمد (2/159 و162 و191 و195)، والحاكم (1/75 و4/513)، وحديث جابر بن عبد الله عند البخاري في الأدب المفرد (320) وحديث أبي هريرة عند الحاكم (1/12).

(الأولى): قال تعالى في الملائكة: ﴿وَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [المؤمن: 7] ولم يقل يلعنونهم ويؤذونهم.

(الثانية): قال ﷺ: «إن الله رفيق يحب الرفق»⁽¹⁾.

(الثالثة): عاتب الله نوحاً حين دعا على قومه بالهلاك.

وقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: 71] ولم يقل أعداء بعض وقال ﷺ: «من آذى مؤمناً بغير حق فكأنما»⁽²⁾ هدم مكة والبيت المعمور عشر مرات، وكأنما قتل ألف ملك من المقربين»⁽³⁾.

وقال ابن عمر ؓ: (إذا لعن العبد دابة تقول الدابة لعنه الله إغضباً لربه)⁽⁴⁾.

(الرابعة)⁽⁵⁾ قال تعالى لرسوله: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [آل عمران: 159] وقال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ [الأعراف: 199] ونهى عن الهمز واللمز فقال: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: 1] وقال: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ [هزار] [القلم: 10-11] وقال لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا﴾ [طه: 44] وقال تعالى: ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَرْكَبُ﴾ [النازعات: 18].

(المقام التاسع) الالتجاء: قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَاءُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ﴾ [التوبة: 16] يمدح المؤمنين على الجهاد وعلى التولي في ذلك بالمؤمنين، لأن المنافقين كانوا يتولون اليهود ويتخذونهم وليجة وبطانة، فعليك أن تتولى الله ورسوله والمؤمنين وليجة وبطانة.

(1) ورد عن جمع كثير من الصحابة: من حديث حبر انظر الطبراني (2301 و2302)، ومن حديث عبد الله بن مغفل عند أبي داود (4807)، والبخاري في الأدب المفرد (472)، ومن حديث أبي هريرة عند ابن ماجه (3688)، وابن حبان (1914)، والبزار (1964 كشف الأستار)، ومن حديث علي عند أحمد (112/1)، والبزار (1960 كشف الأستار)، وأبي يعلى (490)، ومن حديث أبي أمامة عند الطبراني (7477)، وفي مسند الشاميين (421) ومن حديث أنس عند البزار (1961 و1962 كشف الأستار)، والبخاري في الأدب المفرد (466)، ومن حديث عائشة عند مسلم (593)، وابن ماجه (3689).

(2) فكأنما: في (ب) فقد.

(3) لم نره فيما لدينا من المراجع.

(4) لم نره فيما لدينا من المراجع.

(5) الرابعة: من هنا إلى قوله الواسطي ساقط من (ب).

«النكته الأولى» أنه تعالى مدح إبراهيم حيث تبرأ من أبيه وشكى عن حاطب بن أبي بلتعة حيث كاتب الكفار من أهل مكة فقال: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الممتحنة: 1] وقال تعالى: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: 22].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [56] المائدة: 56] سمي من يتولى الله ورسوله حزب الله، ثم قال: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: 62].

«النكته الثانية» قال الواسطي: علامة الولي أربع: لا يشكو من المصائب، ولا يتخذ عمله رياء ويحتمل أذى الخلق ولا يكافئهم ويداري عباده على تفاوت أخلاقهم. وقال الشبلي: أحوال الأولياء ثلاثة، ترك الاختيار وترك الشكوى عند الاضطرار والافتقار إلى الملك الجبار.

(المقام العاشر)⁽¹⁾ في الشهادة على التوحيد. قال الله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: 18].

(الأول) هو أن الله شهد لنفسه بالوحدانية ومن شهد لنفسه في الشاهد فإن تلك الشهادة لا تقبل.

والجواب من وجوه:

الأول: أن هذا في الظاهر شهادة وفي المعنى إقرار، وإقرار المقر على نفسه مقبول وإنما قلنا أن هذا إقرار وذلك لأنه لما ادعى الوحدانية من الإلهية فقد أقر بأن الخلق كلهم عبيده ورزق العبد على المولى لازم، فكأنه تعالى أقر على نفسه للخلق كلهم بالرزق والتربية والحفظ والنصرة، ألا ترى أنه قال: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: 6].

الثاني: أن الشهادة عبارة عن قول يدل على شيء دلالة ظاهرة ثم إن ذلك القول لا يراد لكونه قولاً بل لكونه دالاً على ذلك المطلوب فلا جرم كل فعل قام مقام القول في ذلك التعريف كان شهادة، ثم إن القول الدال لو كانت دلالاته قطعية غير محتملة كان

(1) المقام العاشر من هنا إلى قوله هو الأول والآخر إلخ ساقط من (ب).

أولى بأن تكون شهادة وإذا ثبت ذلك فجميع مخلوقات الله تعالى دالة على وحدانيته و[إلهيته]⁽¹⁾ دلالة يقينية قطعية فكانت أولى بأن تكون شهادة، فإذا شهد الله على التوحيد لأجل أنه خلق الدلائل الدالة على التوحيد قطعاً، وأما شهادة الملائكة وأولي⁽²⁾ العلم فمعناها شهادة الإقرار والاعتراف فكانت شهادة الله على ذلك أقوى وأتم.

الثالث: هو أن كل مسألة⁽³⁾ لا يتوقف العلم بصدق الرسول على العلم بصحتها فإنه يمكن إثباتها بالدلائل السمعية، ومسألة الوحدانية كذلك، فلا جرم ذكر العلماء أنه يمكن إثبات أن الإله واحد بالدلائل السمعية وإذا كان الأمر كذلك كان المقصود من هذه الشهادة أن يستدل بها على وحدانية الله تعالى.

(السؤال الثاني) أنه تعالى نهى العباد عن أن يمدحوا أنفسهم لقوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النجم: 32] ثم إنه مدح نفسه وأثنى على نفسه فما السبب فيه؟

والجواب من وجوه:

الأول: أنه إذا حصل الواحد منا نوع فضيلة فذلك من فضل الله وكرمه فالمستحق للثناء هو الله حيث أعطاه تلك الفضيلة وحلّاه بها، فلا جرم قبح من الواحد أن يشني على نفسه إذا كان المانّ بها غيره عليه، أما الحق ﷻ فإنه قد حصلت له صفات الكمال ونعوت الجلال على وجه يمتنع زواله وتغييره عليه فظهر الفرق.

الوجه الثاني: في الفرق أن ما فينا من الخصال الممدوحة لا ينفك عن أضعادها فإن علمنا مشوب بالجهل، وقدرتنا مشوبة بالضعف، وملكننا بعرض الهلاك، وبقاؤنا بعرض الفناء وحياتنا بعرض الموت، وأما صفات الله تعالى فإنها خالية عن أضعادها فإنه عالم بلا جهل قادر بلا عجز، ملكه بلا زوال وبقاؤه بلا فناء، وحياته بلا موت وعزه بلا ذل، فظهر الفرق.

الوجه الثالث: أن الله تعالى إنما نهى عبده عن تزكية نفسه لأن العبد يقدم الدعوى على إظهار المعنى، فأما الحق سبحانه فإنه كان قد أظهر المعنى قبل الدعوى؛ لأنه خلقك

(1) وإلهيته في الأصل وإلا إلهيته.

(2) وأولى العلم في الأصل وأولو العلم.

(3) مسألة في الأصل مسلمة.

وأعطاك الحياة والعقل. فأنواع المنافع وإظهار الدعوى بعد إقامة البرهان على المعنى يكون مستحسنًا بخلاف حال العبد فإن [في] أكثر أحواله يكون إظهار الدعوى مقدماً على إظهار المعنى.

الوجه الرابع: أن من أوله نطفة مذرة وآخره جيفة قدرة وفي ما [بينهما]⁽¹⁾ جمال القدرة لا يليق به أن يمدح نفسه، إنما [الأحق بمدح]⁽²⁾ النفس هو الأول والآخر والظاهر والباطن.

الوجه الخامس: أن حبّ الإنسان لنفسه غالب فإذا شرع في مدح نفسه استولى حبّ ذلك عليه، ثم إن ذلك يعميه ويصمّه عن التنبّه لما فيه من المعاييب فيصير ذلك سبباً لبقائه في ظلمات الحماقات والجهالات، بخلاف الحق ﷺ فإنه منزّه عن النقائص والآفات فلا يصير مدحه لنفسه سبباً لشيء من المعاييب والنقائص.

السؤال الثالث: لما شهد لنفسه بالوحدانية فأني حاجة مع حصول شهادته إلى شهادة الملائكة و[أولي]⁽³⁾ العلم؟ فما الحكمة في أنه تعالى ذكر بعد شهادة نفسه شهادة الملائكة والمؤمنين؟

والجواب من وجهين:

الأول: روي أنه ﷺ كان يمشي خلف جنازة فقيل: هذا الميت كان رجلاً صالحاً، فقال ﷺ: «واحد» وقال الثاني والثالث كذلك فقال ﷺ: «اثنان ثلاثة» فلما قال الرابع مثل ذلك قال ﷺ: «وجبت»؛ فقيل له: يا رسول الله وما الذي وجب؟ قال ﷺ: «وجبت مغفرته في كرم الله»⁽⁴⁾.

فقال: لأن المؤمنين شهود على وحدانيته فلو لم تقبل شهادتهم ههنا لصارت شهادتهم في الوحدانية غير مقبولة وهو حكيم لا يغفل هذا.

إذا عرفت هذا فنقول: أنه تعالى لما جعل المؤمنين شهوداً لوحدانيته، فلو أظهر

(1) [بينهما] في الأصل: بينه.

(2) [الأحق بمدح] في الأصل: (الحق مدح).

(3) [أولي] في الأصل: (ألو).

(4) لم نره فيما لدينا من المراجع.

ذنبهم ومعصيتهم يوم القيامة صارت شهادتهم مردودة وذلك لا يليق بحكمة الحكيم، فلما جعلهم في هذه الآية شهوداً على وحدانيته دل ذلك على أنه تعالى لا يظهر ذنبهم وقبح فعلهم يوم القيامة. اللهم حقق رجاءنا بكرمك وفضلك.

الثاني: أنه ليس المقصود من ذكر شهادة الملائكة والمؤمنين توقيف هذا المطلوب على شهادتهم، بل المقصود [منه]⁽¹⁾ شهادة الله لهم بأنهم يوافقون الله في كل ما وصل إليهم من أمره ونهيه وخبره، فالمقصود إظهار شرفهم في كونهم موافقين لله في هذه الشهادة لا توقيف المطلوب على شهادتهم.

السؤال الرابع: ما الحكمة في تكرير كلمة لا إله إلا الله في ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾ [آل

عمران: 18]؟

الجواب من وجوه:

أحدهما: أن المقصود من التكرار التنبيه على أن الإنسان يجب أن يكون مواظباً على ذكر هذه الكلمة في أوقات عمره.

وثانيها: أنه لما حصل هذه الكلمة أول الآية وآخرها صار ذلك تنبيهاً على أنه يجب على العاقل أن يجعل هذه الكلمة المذكورة في أول عمره وفي آخر عمره حتى يكون في الدنيا سعيداً وفي الآخرة حميداً.

وثالثها: أن إحدى الشهادتين كانت قبل خلق الخلائق والثانية بعد خلقهم.

ورابعها: أنه تعالى ذكر إحدى الشهادتين عن نفسه والأخرى عن خلقه.

(1) [منه] في الأصل: فيه.

الفصل السابع:

في إقامة الدليل على أن الله واحد لا شريك له

قد بينا أن هذا المطلوب يمكن إثباته بالدلائل العقلية وبالذلائل النقلية فلنذكر الكل، أما الدلائل العقلية فمن وجوه:

الحجة الأولى: القول بوجود إلهين يفضي إلى المحال فيكون القول به محالاً. وإنما قلنا إنه يفضي إلى المحال لأننا لو فرضنا وجود إلهين فلا بد وأن يكون كل واحد منهما قادراً على كل المقدورات، ولو كان كذلك لكان كل واحد منهما قادراً على تحريك زيد وتسكينه، فأما أن يقع المرادان وهو محال؛ لاستحالة الجمع بين الضدين، أو لا يقع واحد منهما وهو أيضاً محال، لأن المانع، من وجود مراد كل واحد منهما حصول مراد الآخر، ولا يمتنع وجود [مراد هذا إلا⁽¹⁾] عند وجود مراد ذلك وبالعكس فلو امتنعا معاً لوجدنا معاً وذلك محال.

وإنما أن يقع مراد أحدهما دون الآخر وهو أيضاً محال لوجهين:

الأول: أنه لما كان كل واحد منهما قادراً على ما لا نهاية له امتنع كون أحدهما أقل من الآخر بل لا بد وأن يستويا في القدرة، وإذا استويا في القدرة استحال أن يصير مراد أحدهما أولى بالوقوع، وإذا لزم ترجح أحد المتساويين على الآخر من غير مرجح وهو محال.

الثاني: أنه إن وقع مراد أحدهما دون الآخر فالذي يحصل مراده يكون إلهاً قادراً والذي لا يقع مراده يكون عاجزاً والعاجز لا يكون إله الخلق.

فإن قيل: لا نسلم صحة المخالفة في الإرادة ويدل عليه وجهان:

(1) [مراد هذا إلا] في الأصل: (هذا الأفراد لا).

الأول: أنه لا بد وأن يكون كل واحد منهما عالمًا بجميع المعلومات وإذا كان كذلك كان كل واحد منهما عالمًا بأن أي أحد الضدين نفع؟ وأيها لا نفع، وما علم الله أنه لا نفع كان ممتنع الوقوع، وما كان ممتنع الوقوع فإن العالم بامتناعه لا يريد، وإذا كان كذلك كان كل واحد منهما [لا يريد]⁽¹⁾ إلا إيقاع شيء واحد.

والثاني: أن كل واحد منهما لا بد وأن يكون حكيمًا، فيكون كل واحد منهما عالمًا بأن أيهما هو الأصلح وأيها ليس هو الأصلح، فيكونان متوافقين في إرادة ما علما أنه هو الأصلح، وبهذا الطريق يمتنع وقوع المخالفة بينهما، سلمنا أنه تصح المخالفة، ولكن المحال إنما يلزم من وقوع المخالفة لا من جواز المخالفة فلا جرم نقول: المخالفة لا تقع وإن كانت ممكنة الوقوع.

الجواب: لو كان العلم بأن أيهما نفع وأيها لا نفع [أوجب]⁽²⁾ إرادة ما علم⁽³⁾ وقوعه لزم أن يكون الله موجباً لأفعاله لا موجوداً لها على سبيل الاختيار، والكلام في الوجدانية فرع على الكلام في إثبات القادر المختار.

الحجة الثانية: لو فرضنا إلهين لكان كل واحد منهما قادراً على جميع المقدورات وذلك يفضي إلى وقوع مقدور واحد بين قادرين مستقلين، وذلك محال؛ فالقول بوجود إلهين محال.

بيان الملازمة أنه إذا كان كل واحد منهما قادراً على جميع المقدورات كان مقدور كل واحد منهما مقدوراً للآخر، ثم إذا اتفقا على أنه لا بد من دخول أحد تلك المقدورات في الوجود فحيث لا يكون وجود ذلك المقدور بأحدهما أولى من وقوعه بالثاني لأن كل واحد منهما مستقل بإيجاده، وكل واحد منهما مرید وجوده، ولا رجحان لأحدهما على الآخر في ذلك فلزم وقوع المقدور الواحد بالقادرين المستقلين [وذلك محال]⁽⁴⁾.

(1) [لا يريد] في الأصل: لا يريد.

(2) [أوجب] في الأصل: وجب.

(3) علم وقوعه في الأصل: على عدم وقوعه، وتنبه للخطأ أحد العلماء فكتب على الهامش: (الأولى حذف لفظه عدم كما لا يخفى والله أعلم).

(4) [وذلك محال] زيادة يقتضيها السياق.

وإنما قلنا: إن ذلك محال لأن ذلك الفعل مستغن بكل واحد منهما عن كل واحد منهما، فيكون محتاجاً إليهما وغنياً عنهما معاً وذلك جمع بين النقيضين وهو محال.

الحجة الثالثة: إذا قدرنا الإلهين فإما أن يصح عليهما أن يختلفا أو لا يصح. فإن صح الاختلاف أفضى ذلك إلى عجز أحدهما على ما يتناه في الحجة الأولى.

وإن لم يصح عليهما الاختلاف كان كل واحد منهما عاجزاً عن إظهار مخالفة صاحبه فيعود الأمر إلى كون كل واحد منهما عاجزاً، والعاجز لا يكون إلهاً.

واعلم أنك متى وقفت على تقرير هذه الوجوه الثلاثة عرفت أن جميع ما في العالم العلوي والسفلي من المحدثات والمخلوقات فهو دليل وحدانية الله تعالى، لأنه لو أراد أحدهما أن يكون صيفاً والآخر أن يكون شتاءً وصحيحاً ومريضاً، وسعداً ونحساً فحينئذ يكون التقسيم المذكور.

الحجة الرابعة: لو فرضنا موجودين واجبي الوجود لذاتيهما فلا بد أن يكون كل واحد منهما مشاركاً للآخر في الوجود ومبايناً له في نفسه، وما به المشاركة غير ما به المباينة، وكل واحد منهما مركب عن الوجود الذي به يشارك الآخر وعن التباين الذي به يباين الآخر وكل مركب فإنه محتاج إلى كل واحد من أجزائه [وأجزاؤه]⁽¹⁾ غيره؛ فكل مركب محتاج إلى غيره، وكل ما كان محتاجاً إلى غيره فهو ممكن لذاته فيوجد سببان كل واحد منهما ممكن الوجود لذاته، وذلك محال فالقول بأن واجب الوجود أكثر من واحد محال.

الحجة الخامسة: لو فرضنا موجودين كل واحد منهما واجب الوجود لذاته فلا بد أن يتميز كل واحد منهما عن الآخر بأمور، وإلا لم يحصل التعدد.

ثم نقول ما به الممايزة إما أن يكون صفة كمال أو لا يكون، فإن كان صفة كمال فالخالى عنها يكون خالياً عن صفة الكمال، فيكون ناقصاً والناقص لا يكون إلهاً وإن لم تكن صفة كمال فالموصوف به يكون موصوفاً بما لا يكون صفة كمال، وما لا يكون صفة كمال كان صفة نقصان، والموصوف به ناقص والناقص لا يكون إلهاً.

(1) [وأجزاؤه] في الأصل: (وأجزاء).

الحجة السادسة: أن يقال: ما به امتياز أحدهما عن الآخر إما أن يكون معتبراً في تحقق الإلهية وإما أن لا يكون معتبراً.

فإن كان معتبراً فيه كان الخالي عنه لا يكون إلهاً، وإن لم يكن معتبراً في الإلهية لم يكن الاتصاف به واجباً فيفتقر إلى المخصص [فالموصوف] ⁽¹⁾ به مفتقر ومحتاج فلا يكون إلهاً.

الحجة السابعة: لو فرضنا إلهين لا بد أن يكون كل واحد منهما بحيث يتمكن العبد من التمييز بينهما، لكن الامتياز في عقولنا لا يحصل إلا بالتباين في المكان أو في الزمان أو في الإمكان، وكل ذلك على الإله محال فيمتنع حصول الامتياز.

الحجة الثامنة: أحد الإلهين إما أن يكون كافياً في تدبير العالم وتخليقه أو لا يكون، فإن كان كافياً كان الثاني صانعاً غير محتاج إليه وذلك نقص والناقص لا يكون إلهاً، وإن لم يكن كافياً فهو ناقص والناقص لا يكون إلهاً.

الحجة التاسعة: العقل يقتضي احتياج الفعل إلى الفاعل والفاعل الواحد كافٍ وما وراء الواحد فليس عدد أولى من عدد فيقتضي ذلك إلى وجود أعداد لا نهاية لها، وذلك محال فالقول بوجود إلهين محال.

الحجة العاشرة: أحد الإلهين إما أن يقدر على تحقق نفسه بدليل يدل عليه على التعيين أو لا يقدر.

والأول: محال؛ لأن دليل إثبات الصانع ليس إلا [هيات] ⁽²⁾ المحدثات وإمكانها، وليس في الحدوث والإمكان ما يدل على تعيين أحدهما.

والثاني: أيضاً باطل؛ لأنه يفضي إلى كون كل واحد منهما عاجزاً عن تعرف نفسه على التعيين والعاجز لا يكون إلهاً.

الحجة الحادية عشرة: أحد الإلهين إما أن يقدر على أن يستر شيئاً من أفعاله أو لا يقدر، وإن قدر لزم كون المستور عنه جاهلاً وإن لم يقدر لزم كونه عاجزاً.

(1) [فالموصوف] في الأصل: (فلو وصف به).

(2) [هيات] في الأصل: (لهيات).

الحجة الثانية عشرة: لو قدرنا إلهين لكان مجموع قدرتيهما أقوى من قدرة كل واحد منهما على الانفراد، والأقل من الغير متناهٍ فقدرة كل واحد منهما متناهية، وكل واحد منهما عاجز.

الحجة الثالثة عشرة: العدد ناقص لاحتياجه إلى الواحد، وأيضاً الواحد الذي يوجد من جنسه ونوعه وغيره أيضاً ناقص؛ لأن مجموع العدد أزيد منه والناقص لا يكون إلهاً.

الحجة الرابعة عشرة: لو فرضنا معدوماً ممكن الوجود ثم قدرنا إلهين فإن لم يقدر واحد منهما على إيجاده كان كل واحد منهما عاجزاً والعاجز لا يكون إلهاً. وإن قدر أحدهما دون الآخر فهذا الآخر لا يكون إلهاً.

وإن أقدر جميعاً فإما أن يوجداه بالتعاون فيكون كل واحد منهما محتاجاً إلى إعانة الآخر فيكون كل واحد منهما عاجزاً، وإن قدر كل واحد منهما على إيجاده بالاستقلال فإذا أوجده أحدهما فإما أن يبقى الثاني قادراً عليه وهو محال، لأن إيجاد الموجود محال، وإن لم يبق فحينئذ يكون الأول قد أزال قدرة الثاني وعجزه فيكون مقهوراً تحت تصرفه فلا يكون إلهاً.

فإن قيل: فالواحد إذا أوجد مقدوراً بنفسه فقد زالت قدرته فيلزمك أن يكون هذا الواحد قد جعل نفسه عاجزاً.

قلنا: الواحد إذا أوجد مقدور نفسه فقد نفذت قدرته، فنفاذ القدرة لا يكون تعجيزاً، وأما الشريك فإنه ما نفذت قدرته ألغته بل زالت قدرته بسبب قدرة الأول فيكون ذلك تعجيزاً.

الحجة الخامسة عشرة: إنا نعيّن جسماً نقول: هل يقدر كل واحد منهما على خلق الحركة فيه بدلاً عن السكون وبالعكس أو لا يقدر؟

فإن لم يقدر كان عاجزاً، وإن قدر فتسوق الدلالة المتقدمة إلى أن نقول: إذا خلق أحدهما فيه حركة امتنع على الثاني خلق السكون فالأول أزال قدرة الثاني وجعله عاجزاً فلا يكون إلهاً.

الحجة السادسة عشرة: أنا لو قدرنا إلهين لكان كل واحد منهما عالماً بجميع

المعلومات وكان علم كل واحد منهما متعلقاً بغير معلوم الآخر، فوجب تماثل علمهما، والذات القابلة لأحد المثليين قابل للمثل الآخر فاختصاص هذه الذوات بهذا العلم مع جواز اتصافها بذلك العلم الثاني بدلاً عن هذا العلم يكون أمراً جائزاً فيستدعي مخصصاً يخصص كل واحد منهما بعلمه وقدرته فيكون كل واحد منهما عبداً ناقصاً مفتقراً إلى الإله وأنه محال.

الحجة السابعة عشرة: أن الشركة في الملك عيب في الشاهد والفردانية والتوحيد بالملك والاستقلال به صفة كمال، ونرى الملوك يكرهون الشركة في الملك الحقير المتحقر أشد الكراهية، ونرى أنه كلما كانت المملكة أعظم كانت النفرة عن الشركة أشدّ فما ظنك بملك الله وملكوته؟!

وإذا أراد أحدهما استخلاص الملك لنفسه [و] (1) قدر عليه كان المغلوب فقيراً عاجزاً فلا يكون إلهاً وإن لم يقدر عليه كان في أشد الغم والحيرة فلا يكون إلهاً.

الحجة الثامنة عشرة: أنا لو قدرنا إلهين لكان إما أن يحتاج كل واحد منهما إلى الآخر أو يستغني كل واحد عن الآخر، فإن كان الأول كان كل واحد منهما محتاجاً [وكل] (2) محتاج ناقص وكل ناقص لا يكون إلهاً.

وإن كان الثاني كان كل واحد منهما مستغني عنه والمستغني عنه ناقص، ألا يرى أن البلد إن كان له رئيس والناس يحصلون مصالح البلد من غير رجوع منهم إليه ومن غير التفات منه إليهم عد ذلك الرئيس في غاية الذلة والمهانة؛ فالإله هو الذي يستغني به ولا يستغني عنه، وإن احتاج أحدهما إلى الآخر من غير عكس كان المحتاج ناقصاً والمستغني هو الإله.

واعلم أن هذه الوجوه بعضها قطعية وبعضها إقناعية وأما الدلائل السمعية:

فالحجة الأولى: قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُمَّ إِنَّكَ وَحْدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة: 163] وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (1) وقال: ﴿لَا تَجِدُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَحْدٌ﴾ [النحل: 51].

(1) [و] زيادة يقتضيها السياق.

(2) [وكل] في الأصل: (فكل).

الحجة الثانية: قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾ [الحديد: 3] فالأول هو الفرد السابق ولذلك لو قال: أول عبد اشتريته هو حرٌ فلو اشترى أولاً عبدين لم يحنث لأن الأول يجب أن يكون فرداً، وهذان⁽¹⁾ ليسا بفرد ثم لو اشترى بعد ذلك واحداً لم يحنث أيضاً لأن الأول يجب أن يكون سابقاً وهذا ليس بسابق، فثبت أن الأول هو الفرد السابق فلما وصف الله نفسه بكونه أولاً لزم أن يكون فرداً سابقاً وذلك يقتضي أن لا يكون له شريك.

الحجة الثالثة⁽²⁾: قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: 59] فالنص يقتضي أن لا يعلم أحد سواه تلك المغيبات ولو كان له شريك لكان عالماً بالغيب وكان على خلاف هذا النص.

الحجة الرابعة: أن الله تعالى صرح بكلمة: لا إله إلا الله في سبعة وثلاثين موضعاً في كتابه العزيز وكل ذلك يدل على المقصود⁽³⁾.

الحجة الخامسة: قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: 88] حكم بأن كل ما سواه هالك⁽⁴⁾، وكل ما جاز عليه العدم بعد وجوده لا يكون قديماً لأن ما ثبت قدمه امتنع عدمه، وما لا يكون قديماً لا يكون إلهاً.

الحجة السادسة⁽⁵⁾: قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: 17] ولو كان له شريك لكان الشريك قادراً على الضرر والنفع وذلك خلاف قوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾.

(الحجة السابعة) أنه تعالى استدل في كتابه على صحة التوحيد بثلاثة أوجه:

أحدها: قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: 22].

- (1) وهذان في (ب) وهذا.
- (2) الحجة الثالثة من هنا إلى قوله: اعلم أن الله تعالى صرح إلخ ساقط من (ب).
- (3) على المقصود في (ب) على الوجدانية.
- (4) كل ما سواه هالك في (ب) كل ما سواه فهو هالك.
- (5) الحجة السادسة من هنا إلى قوله أن من فعل فعلاً إلخ ساقط من (ب).

والثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّآ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: 91].

والثالثة: قوله تعالى: ﴿إِذَا لَابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: 42].

واعلم أنه لما ذكر قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءِآلهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾.

قال (1) بعده: ﴿فَسُبْحٰنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: 22]

وفيه لطائف:

أولها: أنه تعالى لما أقام الدلالة القاطعة على صحة التوحيد قال بعده: ﴿فَسُبْحٰنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

وذلك تنبيه على أن الاشتغال بالتسبيح إنما ينفع بعد إقامة الدلالة على كونه منزهاً.

وثانيها: إنه لم يقل: ﴿فَسُبْحٰنَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ بل قال: ﴿فَسُبْحٰنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ والسبب فيه أن هذه المناظرة إنما وقعت مع عبدة الأوثان إلا أن الدليل الذي ذكره الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءِآلهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ يفيد الرد على كل من أثبت لله شريكاً، ثم إنه بعد أن ذكر هذا الدليل العام نبه على نكتة خاصة لعبدة الأصنام وهي أنه كيف يجوز للعاقل أن جعل الجماد الذي لا يحس ولا يعقل شريكاً في الإلهية لخالق العرش العظيم وموجد السموات والأرضين وأما قوله تعالى: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [الأنبياء: 23] فاعلم أنه تعالى علق هذه الآية بما قبلها لأن (2) عمدة من أثبت لله شريكاً ليست إلا طلب الكمية في أفعال الله تعالى، وذلك لأن الوثنية والمجوس وهم الذين أثبتوا لله شريكاً عولوا في تقرير (3) مذهبهم على نكتة واحدة وهي أننا نرى في العالم خيراً وشرّاً، ولذة وألماً، وصحة وسقماً، وحياة وموتاً، وغنى وفقراً، وقد ثبت في العقول أن فاعل الخير خير وفاعل الشر شرّ ويستحيل أن يكون الفاعل الواحد خيراً وشرّاً معاً، فلا بد من فاعلين ليكون أحدهما فاعلاً للخير والآخر فاعلاً للشرّ، ويرجع حاصل هذه الشبهة إلى أن الفاعل الحكيم لا يجوز أن يخص

(1) قال في الأصل ثم قال .

(2) لأن في الأصل: أن .

(3) تقرير في الأصل: تقدير .

بعض عبده بالفقر والألم والموت فيرجع حاصل الكلام إلى طلب الكمية في أفعال الله .

والجواب: الأصل لهذه الشبهة أن أفعال الله لا تُعَلَّل، وله أن يفعل كل ما يشاء، فلَمَّا كان مدار المثبتين لشريك الله على طلب الكمية من أفعال الله فلا جرم أنه تعالى بعد أن ذكر الدليل الدال على التوحيد ذكر ما هو النكته الأصلية في الجواب عن شبهة القائلين بالشريك، لأن الترتيب الحسن في المناظرة أن يقع الابتداء بذكر الدليل المثبت للمطلوب ثم يذكر بعده بما هو الجواب المعتمد عن شبهة الخصم. فإن قال قائل: فما الدليل العقلي على أنه تعالى لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون، وأنه لا يجوز تعليل أفعاله وأحكامه برعاية المصالح؟

قلنا: أما أصحابنا أهل السنة فقد استدلوا عليه من وجوه:

الحجة الأولى: أنه لو كان كل شيء معللاً بعلّة لكانت علّة تلك العلة بعلّة أخرى، ولزم إما الدور وإما التسلسل وهما محالان فلا بد من قطع السلسلة من الانتهاء إلى ما يكون غنياً عن العلة وأولى الأشياء بذلك ذات الله وصفاته فكما أن ذاته منزّهة عن الافتقار إلى المؤثر والعلّة وصفاته مبرأة عن الافتقار إلى المبدع والمخصص، فكذلك فاعليته وجب أن تكون مقدّسة عن الافتقار إلى الموجب والمؤثر.

الحجة الثانية: فاعليته لو كانت معللة بعلّة لكانت تلك العلة إما أن تكون واجبة أو ممكنة، فإن كانت واجبة لزم من وجوبها كونه تعالى فاعلاً وحينئذ يكون واجباً بالذات لا فاعلاً بالاختيار⁽¹⁾، وإن كانت ممكنة كانت تلك العلة أيضاً فاعلاً لله تعالى فيفتقر كونه تعالى فاعلاً لها إلى علة أخرى ولزم التسلسل.

الحجة الثالثة: علة تلك الفاعلية إن كانت قديمة لزم كون الفاعلية قديمة فيلزم كون المفعول قديماً وهذا خلف، وإن كانت محدثة افتقرت إلى علة أخرى ولزم التسلسل.

(1) بالاختيار في الأصل لا اختيار.

الحجة الرابعة: أن من فعل فعلاً لغرض فإما أن يكون قادراً على تحصيل الغرض⁽¹⁾ بدون تلك الوسطة أو لا يكون قادراً عليه، فإن كان الأول كان توسط تلك الوسطة عبثاً وإن لم يكن قادراً عليه كان عاجزاً، وذلك على الله محال بخلاف الواحد منّا فإن العجز علينا جائز فلا جرم أفعالنا كانت معللة بالأغراض.

الحجة الخامسة⁽²⁾: لو كان فعله تعالى معللاً بغرض لكان ذلك الغرض إما أن يكون عائداً إلى الله تعالى أو إلى العباد، والأول محال لأنه منزّه عن النفع والضرر وإذا بطل هذا تعيّن أن الغرض لا بد أن يكون عائداً إلى العباد، ولا غرض للعباد إلا حصول اللذات وعدم حصول الآلام، والله تعالى قادر على تحصيلها ابتداءً من غير شيء من الوسائط، وإذا كان كذلك استحال أن يفعل شيئاً لأجل شيء.

الحجة السادسة: لو فعل فعلاً لأجل غرض لكان ذلك الغرض وعدمه بالنسبة إليه إما أن يكون على السوية أو لا يكون، فإن كان على السوية استحال أن يكون غرضاً وإن لم يكن على السوية لزم كونه سبحانه ناقصاً لذاته مستكماً بغيره وهو محال.

فإن قلت: وجود ذلك الغرض وعدمه إن كان بالنسبة إليه على السواء أما بالنسبة إلى عباده فالوجود أولى من العدم.

فنقول: تحصيل تلك الأولوية للعبد وعدم تحصيلها له إما أن يكون بالنسبة إلى الله على السوية أو لا على السوية وحيثنذ يعود التقسيم الأول.

الحجة السابعة: أن الموجودات بأسرها مملوكة له ومن تصرف في ملك نفسه لا يقال له: لم فعلت؟

الحجة الثامنة: من قال لغيره: لم فعلت ذلك؟ فهذا السؤال إنما يحتمل حيث يقدر السائل على منع المسؤول عنه عن فعله وذلك من العبد في حق الله تعالى محال، فإنه لو فعل أي فعل شاء فالعبد كيف يمنعه عن ذلك فإن المنع إنما يحصل بأن يهدده بالعقاب والإيلام، وذلك محال على الله تعالى أو بأن يهدده باستحقاق الذم

(1) تحصيل الغرض في (ب) تحصيل ذلك الغرض.

(2) الحجة الخامسة من هنا إلى قوله: الفصل الثامن إلخ ساقط من (ب).

والخروج عن الحكمة والاتصاف بالسفه على ما يقوله المعتزلة وذلك أيضاً على الله محال لأن استحقاقه للمدح واتصافه بصفات الحكمة والجلال أمور له ذاتية، وما ثبت لشيء لذاته مستحيل أن يتبدل لأجل تبدل الصفات العرضية فثبت بهذه الوجوه أنه لا يجوز أن يقال لله في أفعاله لم فعلت كذا. فظهر صدق قول مشايخنا رحمهم الله أن كل شيء صنعه لا علة لصنعه. أما المعتزلة فإنهم سلموا أنه يجوز أن يقال لله تعالى لم فعلت، لكنهم بنوا الجواب عن شبهة الثنوية على أصل آخر وهو أنه تعالى عالم بقبح القبائح وعالم بكونه غنياً عنها، ومن كان كذلك فإنه يستحيل أن يفعل القبيح وإذا عرفنا ذلك عرفنا إجمالاً أن كل ما يفعله الله فهو حكمة وصواب، وإذا كان كذلك لم يجوز للعبد أن يقول لله: لم فعلت هذا فظهر بما ذكرنا على اختلاف المذهبين صدق قوله تعالى: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ وإذا ظهر ذلك سقطت شبهة الثنوية في إثبات الشريك وبالله التوفيق.

الفصل الثامن:

في الأحكام الفقهية المتفرعة على قولنا لا إله إلا الله

اعلم أن الإيمان لا بد له من أمرين:

أحدهما: وهو الأصل⁽¹⁾ حصول المعرفة في القلب وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: 19].

وثانيها: الإقرار باللسان بالتوحيد وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 1] وذلك لأن قوله ﴿قُلْ﴾ أمر للمكلف بأن يقول بلسانه ما يدل على التوحيد ثم تأكدت هذه الدلالة بالسنة الغراء وهي قوله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله»⁽²⁾. والسبب في أنه لا بد من هذا القول هو أن للإيمان أحكاماً بعضها يتعلق بالباطن وبعضها بالظاهر فما يتعلق بالباطن فهو أحكام الآخرة وذلك متفرع على العلم الذي هو باطن عن الخلق وما يتعلق بالظاهر فهو أحكام الدنيا، ولا يمكن⁽³⁾ إقامتها إلا بعد معرفتنا أنه مسلم ولا معرفة إلا بالقول باللسان فصارت المعرفة ركناً أصلياً في حق الله تعالى، والقول ركناً شرعياً في حق الخلق، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكُرُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا﴾ [البقرة: 221].

وقال ﷺ: «من قال: لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة»⁽⁴⁾ وقال الشيخ أبو علي الدقاق⁽⁵⁾: من قالها مخلصاً من قلبه⁽⁶⁾ دخل الجنة في حالته؛ قال تعالى: ﴿وَلِمَن خَافَ

(1) وهو في الأصل في (أ) وهو أن الأصل.

(2) تقدم تخريج هذا الحديث.

(3) ولا يمكن في (أ) وما يمكن.

(4) هو عند ابن حبان (4 و7) من حديث جابر وعند أبي نعيم في الحلية (7/312) من حديث معاذ (9/254) ومن حديث زيد بن أرقم.

(5) أبو علي الدقاق في (ب) علي بن الدقاق.

(6) من قلبه ساقط من (ب).

مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴿٤٦﴾ [الرحمن: 46] جنة في الوقت وهي جنة المعرفة، وجنة غدأ وهي جنة الآخرة.

اختلف المحققون فقال الأكثرون: الأولى أن يكون الذكر في الابتداء قوله: لا إله إلا الله وفي الانتهاء الاختصار على ذكر كلمة: الله.

ومنهم من واظب في الابتداء والانتهاء على ذكر: لا إله إلا الله.

وحجة هؤلاء: أن عالم القلب مشحون بغير الله فلا بد من كلمة النفي لنفي الأغيار، فإذا صار خالياً فحينئذ يوضع سرير⁽¹⁾ التوحيد ويجلس عليه سلطان المعرفة.

وأما الذين اكتفوا في النهايات بكلمة: الله، فلهم فيه وجوه:

الحجة الأولى: أن نفي العيب عن استحليل عليه العيب عيب.

الحجة الثانية: أن من⁽²⁾ قال: لا إله إلا الله فلعلّه حين ذكر كلمة النفي لم يجد من⁽³⁾ المهلة ما يصل فيه إلا الإثبات فحينئذ يبقى في النفي غير منتقل إلى الإثبات وفي الجحود غير منتقل إلى الإقرار.

الحجة الثالثة: أن المواظبة على هذه الكلمة مشعر بتعظيم الحق - جلّ وعلا - بنفي الأغيار، إلا أن نفي الأغيار من باب الاشتغال بالأغيار والاشتغال بنفي الأغيار يرجع في الحقيقة إلى شغل القلب بالأغيار، وذلك ممتنع من الاستغراق في نور التوحيد فمن قال: لا إله إلا الله فهو مشتغل بغير الحق ومن قال: الله فهو مشتغل بالحق؛ فأين أحد المقامين من الآخر؟!

الحجة الرابعة: أن نفي الشيء إنما يحتاج إليه عند خطور⁽⁴⁾ ذلك الشيء بالبال وخطور شريك الله بالبال لا يكون إلا من نقصان الحال، وأما الكاملون الذين لا يخطر

(1) سرير هكذا في (ب) وهامش (أ).

في (أ) وهامش (ب) (منير).

(2) من في هامش (ب) زيادة (كل).

(3) لم يجد من المهلة في (أ) لا يجد المهلة.

(4) خطور: في (ب) هنا وما بعده حضور.

ببالهم وجود الشريك امتنع أن يكلفوا بنفي⁽¹⁾ الشريك بل هؤلاء لا يخطر ببالهم ولا يخطر في خيالهم إلا ذكر الله فلا جرم يكفيهم أن يقولوا: الله .

الحجة الخامسة: قال الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام:

91] فأمر بذكر الله ومنعه من الخوض معهم في أباطيلهم ولعبهم، والقول بالشريك من الأباطيل، ففيه خوض في ذلك الكلام فكان الأولى الاقتصار على قولنا: الله، فهذا ما في هذا المقام وههنا أنواع من التضرّعات .

أحدها: أن نقول: إلهنا⁽²⁾! أن موسى عليه السلام سأل أجلّ الأشياء فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ وسأل أقلّ الأشياء فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: 24] فنحن أيضاً نسألك أجلّ الأشياء وهي خيرات الآخرة وأقلّها وهو خيرات الدنيا فنقول: ﴿رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةٌ﴾ [البقرة: 201].

إلهنا! يحكى أن رجلاً باع جارية ثم ندم فاستحيا أن يظهر هذه الحالة للمشتري ولسائر الناس فكتب في كفه حاجته ورفعها إلى السماء ولم يقل بلسانه شيئاً، فرأى المشتري في المنام [الله تعالى يقول له]: إن فلاناً من أوليائي قلبه مشغول بهذه الجارية فردّها عليه وأجرّك عليّ، فلما أصبح الرجل⁽³⁾ حَمَلَ الجارية إليه⁽⁴⁾ وردّها عليه، فلما أراد البائع أن يرد الذهب قال المشتري: إن لهذا⁽⁵⁾ الثمن ضامناً هو خير منك. إلهنا! إن كان ذلك البائع ندم على بيع تلك الجارية فنحن ندمنا على بيع⁽⁶⁾ الآخرة بالدنيا، وإن كان ذلك البائع قد استحيا من العود فنحن من كثرة ذنوبنا نستحي منك، وإن كان ذلك البائع قد كتب على كفه⁽⁷⁾ شيئاً من حاجته⁽⁸⁾ ورفعها إلى السماء فجميع أعضائنا مكتوب عليها احتياجنا إلى رحمتك وذلنا بين يديك، فهاهنا وكما ضمننت دين

(1) يكلفوا ينفي: في (أ) يكلفه انتفاء .

(2) إلهنا ساقط من (ب) .

(3) أصبح الرجل في (أ) فلما أصبح حمل الرجل .

(4) إليه: ساقط من (ب) .

(5) لهذا: في (ب) لذلك .

(6) على بيع: في (ب) على أن بعنا .

(7) على كفه: في (ب) في كفه .

(8) شيئاً من حاجته: في (ب) حاجته .

المشتري⁽¹⁾ فاقبل ديننا، وأسقط عنا تبعات أعمالنا، وافعل بنا ما أنت أهله، ولا تفعل بنا ما نحن أهله يا من لا يشغله شأن من شأن!

إلهنا! يروى في الخبر⁽²⁾ أن علي بن أبي طالب عليه السلام كان له مؤذن وكانت له جارية فقالت الجارية: يا مولاي إن المؤذن⁽³⁾ يقول لي: إني أحبك، فقال عليه السلام: فقولي⁽⁴⁾ له أيضاً: وأنا أحبك، وانظري ماذا يقول⁽⁵⁾ فلما قالت له الجارية: ذلك، قال المؤذن لها: أصبرُ واصبري⁽⁶⁾ حتى يحكم⁽⁷⁾ الله بيننا، واستحقر⁽⁸⁾ نفسه ولم يرها أهلاً للطلب من علي [فسكت] فقالت الجارية لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه ذلك فطلبه علي عليه السلام وزوجها منه، إلهنا! المؤذن لما استحقر نفسه ولم ير نفسه أهلاً لذلك الطلب طلبه علي وأكرمه بها، وأنت العلي الأعلى، وأنت أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين، ونحن لا نرى أنفسنا أهلاً لطلب رحمتك لحقارة أنفسنا في أعيننا، فلا تحرمنا فيض رحمتك وآثار جودك يا من لا يبرمه إلحاح الملحّين!

إلهنا! يروى⁽⁹⁾ أن أبا بكر الصديق عليه السلام كان يخافت في صلاته بالليل، ولا يرفع صوته بالقراءة، وكان عمر يجهر في صلاته في الليل⁽¹⁰⁾، فسأل رسول الله أبا بكر عن فعله فقال: من أناجيه يسمع كلامي، وسأل عمر فقال: أوقظ الوسنان وأطرد الشيطان وأرضي الرحمن، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم [أبا بكر] حتى يرفع صوته قليلاً، وأمر عمر حتى يخفض صوته⁽¹¹⁾ قليلاً.

- (1) دين المشتري، في (ب) دين الغرماء.
- (2) في الخبر: ساقط من (ب).
- (3) إن المؤذن في (ب) إن هذا المؤذن.
- (4) فقولي في (أ) قولي.
- (5) وانظري ماذا يقول في (ب) فماذا تريد.
- (6) أصبرُ واصبري في (ب) فأصبر.
- (7) حتى يحكم في (ب) إلى أن يحكم.
- (8) واستحقر من هنا إلى فحكت ساقط من (ب).
- (9) يروى إلخ رواه أحمد (109/1) من حديث علي والترمذي (447)، وأبو داود (1329) من حديث أبي قتادة والترمذي (1330) من حديث أبي هريرة.
- (10) يجهر في صلاته في الليل في (ب) يجهر بها.
- (11) يخفض صوته في (ب) يخفضه.

إلهنا! الإيمان فينا كالرسول، والقلب كأبي بكر واللسان مثل عمر، فالقلب يخافت بالذكر مثل أبي بكر واللسان يظهر [خفايا]⁽¹⁾ الذكر مثل عمر، والإيمان يأمر القلب بالزيادة في الفكر ويأمر اللسان بإخفاء الذكر، فوقفنا لما تحب وترضى بفضلك يا أكرم الأكرمين.

فصل⁽²⁾: ومن العارفين من اختار السكوت عن الكل في النهاية قال ﷺ⁽³⁾: «من عرف الله كَلَّ لسانه عن ما سوى الله» أي: إلا عن ذكر الله⁽⁴⁾، ويروى أن الجنيد كان في الكلام فزق الشبلي وقال: الله، فقال الجنيد: الغيبة حرام. ومعناه: إنك إن كنت غائباً فذكر الغائب غيبة وإن كنت حاضراً فذكر الاسم في الحضرة سوء أدب، وتمام التحقيق⁽⁵⁾ في هذا المقام سيأتي إن شاء الله تعالى.

فصل: روى الإمام محمد بن علي الحكيم الترمذي عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من نفس تموت فتشهد أن لا إله إلا الله وإني رسول الله يرجع ذلك إلى قلب موقن إلا غفر الله [لها]»⁽⁶⁾.

قال الشيخ: فهذه شهادة شهد بها عند الموت وقد ماتت منه الشهوات ولانت نفسه المتمردة من هول الموت، وذهب حرصه، وألقى نفسه بين يدي قدرة رب العالمين، فاستوى منه الظاهر والباطن فلقى الله مخلصاً بتلك الشهادة؛ فغفر الله له بتلك الشهادة الصادقة التي وافق ظاهرها باطنها.

أما الذي يقول أيام الصحة فقول مع التخليط؛ لأنه يشهد بهذه الشهادة وقلبه مشحون بالشهوات، ونفسه أشرة بطرة فلا يستوجب بذلك القول المغفرة. فهذا هو التفاوت بين ذكر الشهادة حال الصحة وذكرها في آخر زمن الحياة.

وتمام القول فيه: أن الإنسان الذي يكون قلبه مفتوناً بدنياه ومأسوراً في

(1) [خفايا] في (أ) [باخفا] والظاهر أن فيه قلباً في (ب) الكلمة ساقطة.

(2) فصل: هذه الكلمة ساقطة من (ب).

(3) قال صلى إلخ: لم نره فيما لدينا من المراجع.

(4) عن ما سوى إلى عن ذكر الله: ساقط من (ب).

(5) وتمام التحقيق: من هنا إلى قوله: من قال لا إله إلا الله وحده. ساقط من (ب).

(6) [لها] زيادة يقتضيهما السياق.

الشهوات سكران عن الآخرة، حيران عن الله، لم يحصل فيه اليقين ألبتة؛ لأن قلبه مملوء بالميل إلى غير الله فلا يحصل فيه الميل إلى الله.

أما إذا حصل في القلب اليقين بالله كان الأمر بخلاف ذلك، لأن اليقين سُمي يقيناً لاستقراره في القلب وهو النور، يقال: يقن الماء في الحفرة إذا استقرَّ، فإذا استقر النور دام وإذا دام صارت النفس صاحب بصيرة؛ فاطمأن القلب بجلال الله ثم انقطع عن غير الله فوقف هناك عاجزاً فاستعان بالله صارخاً مضطراً فأجابه الحق ﷻ: بأنه يُجيب دعوة المضطرين، فيفرق ذلك النور المتألئ في القلب يفلت به ظلمات الاشتغال بغير الله، فيصير أمر الملكوت شاهداً له، وهو قول حارثة لرسول الله ﷺ حيث قال: كأتني أنظر إلى عرش ربِّي بارزاً، فقال رسول الله ﷺ: «عبد نور الله الإيمان في قلبه»، وقد جاء في الأخبار أن إدريس وموسى ومحمداً صلوات الله عليهم وسلامه كل واحد منهم كان في زمانه مواظباً على هذا الدعاء: «يا نور كل شيء أنت الذي فلق الظلمات نوره» وما يحقق ما قلناه قوله ﷺ: «من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير» مخلصاً بها روحه مصداقاً بها قلبه ولسانه فتقت له السموات فتقاً حتى ينظر الرب إلى قائلها من أهل الدنيا⁽¹⁾. وعن زيد⁽²⁾ بن أرقم قال: قال ﷺ: «من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة» قيل: يا رسول الله وما إخلاصها؟ قال: «أن تحجره عن المحارم»⁽³⁾ وقال ﷻ: «اخلص يكفك القليل» وعن زيد بن أرقم قال ﷺ: «أن الله عهد إلي أن لا يأتيني أحد من أمتي بلا إله إلا الله لا يخلط بها شيئاً إلا وجبت له الجنة» قالوا: يا رسول الله وما الذي يخلط بها؟ قال: «حرصاً على الدنيا وجمعاً لها ومنعاً لها»⁽⁴⁾، يقول بقول الأنبياء ويعمل عمل الجابرة⁽⁵⁾. والحاصل أنه لا بد من اليقين عند التكلم بهذه الكلمة حتى تكون نافعة⁽⁶⁾ ولا يحصل اليقين بها إلا بموت الشهوات ولا يحصل موت الشهوات إلا بأحد الطريقتين:

(1) لم نره فيما لدينا من المراجع.

(2) وعن زيد بن أرقم من هنا إلى قوله: قال ﷺ: إن الله عهد، ساقط من (ب).

(3) انظر: معجم الطبراني (5074)، ورواه الحاكم (306/4)، وأبو نعيم في الحلية (1/244) من حديث معاذ.

(4) لها: ساقط من (أ).

(5) رواه الترمذي في نوادر الأصول، وهو ليس بصحيح على قاعدة السيوطي.

(6) ولا يحصل من هنا إلى قوله قال علي ﷻ: قال رسول الله ﷻ إن الخ ساقط من (ب).

أحدهما: أن يروّض نفسه حتى تموت شهوته حال حياته .

والثاني: إنسان ماتت شهواته عند وفاته وعظم رجاؤه وخوفه عن ربه وانقطع فكره عن غير الله بالكلية اضطراراً فإذا نطق بهذه الكلمة في تلك الحال استوجب المغفرة فهذا السبب استحَب السلف أن يلقنوا المحتضر هذه الكلمة فقال عليه السلام: «لقنوها موتاكم» فالإنسان عند القرب من الموت فنيت شهواته فحصل له نور اليقين فصارت هذه الكلمة مقبولة منه . وأما الأول وهو الذي يروّض نفسه فقد فتح له روزنة إلى الغيب فركبته أهوال سلطان الجلال فنطق بها عن القلب الصافي فهو بالمغفرة أولى .

وعن عبد الله بن جعفر عن أبيه قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لقنوا موتاكم لا إله إلا الله الحكيم الكريم سبحانه الله رب السموات ورب العرش العظيم الحمد لله رب العالمين» فقالوا: يا رسول الله فكيف هي للحي؟ قال: «هي أجود وأجود»⁽¹⁾ وكان أهل البيت يسمّون هذه الكلمات كلمات الفرج فيتكلمون بها في النوائب والشدائد فيجيتهم الفرج وفيه زيادة كلمة لا إله إلا الله العلي العظيم . وعن مكحول أن كلمات الفرج: لا إله إلا الله العلي العظيم لا إله إلا الله الحليم الكريم رب السموات ورب العرش العظيم الحمد لله رب العالمين . وقال علي بن أبي طالب عليه السلام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا أعلمك كلمات إذ قلتها غفرت لك ذنوبك وإن كانت مثل عدد الذر من الخطايا لا إله إلا الله الحليم الكريم لا إله إلا الله العلي العظيم سبحانه الله رب السموات السبع»⁽²⁾ ورب العرش العظيم الحمد لله رب العالمين .

فصل⁽³⁾: يروى أنه كان صنفان يتقابلان من المسلمين والكفار، والكفار كانوا نصارى فقال الكافر للمسلم: لمن تقاتل؟ قال المسلم: عن الواحد، فقال النصراني: بل أنا أقاتل عن ثالث ثلاثة، فلما تقابلا صرع المسلم الكافر وجلس على صدره وقال: نصرني الواحد وضيّعك الثلاثة . قال جعفر بن محمد الصادق: عجبت لمن بلي بأربع كيف يغفل عن أربع . عجبت لمن أعجب بأمر كيف لا يقول: ما شاء الله لا قوة إلا بالله وأنه تعالى يقول: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾

(1) رواه ابن ماجه (1446) والطبراني في الكنى والحكيم الترمذي في نوادر الأصول .

(2) السبع ساقط من (أ) .

(3) فصل يروي إلخ من هنا إلى قوله اعلم أن الله تعالى ذكر ساقط من (ب) .

[الكهف: 39] وعجبت لمن خاف قوماً كيف لا يقول: حسبي الله ونعم الوكيل والله تعالى يقول: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (١٧٣) فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مَنِ اللَّهُ وَفَضْلِ لَمْ يَمَسَّهُمْ سُوءٌ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ﴿آل عمران: 173 - 174﴾ وعجبت لمن خاف من مكر مُكر به كيف لا يقول: ﴿وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (٤٤) فَوَقَلَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَّرُوا ﴿غافر: 44 - 45﴾ وعجبت لمن أصابه غم أو كرب كيف لا يقول: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: 87] إلى قوله: ﴿وَيَجِئْنَهُ مِنَ الْعَرِيِّ﴾. وقال سفيان بن عيينة أنه تعالى لما قال: ﴿وَكَذَلِكَ نُنشِئُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فقد وعد كل مؤمن يقول: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أن ينجيه من كل غم، ومن المعلوم بالضرورة أن الله لا يخلف الميعاد.

(فصل) اعلم أنه تعالى ذكر كلمة لا إله إلا الله في القرآن العظيم⁽¹⁾ في سبع وثلاثين موضعاً.

اثنان في سورة البقرة⁽²⁾:

1: ﴿وَاللَّهُكَرُّ إِلَهٌُ وَحْدَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 163].

2: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: 255].

وأربعة في آل عمران:

3: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: 1-2].

4: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل

عمران: 6].

5: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل

عمران: 18].

6: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: 6].

(1) العظيم ساقط من (أ).

(2) اثنان من البقرة من هنا إلى قوله اتفق مشايخ الطريقة إلخ ساقط من (ب).

وواحد في سورة النساء:

7: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُجَمِّعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْتَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: 87].

واثنان في الأنعام:

8: ﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: 102].

9: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنعام: 106].

وواحد في الأعراف:

10: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [الأعراف: 158].

واثنان في التوبة:

11: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُءُوسَهُمْ أَرْكَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحٰنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: 31].

12: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: 129].

وواحد في يونس:

13: ﴿وَجَوْرَانَا بَنِي إِسْرٰوِيلَ الْبَحْرَ فَأَنْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرَقُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنفِي لَآ إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمِنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرٰوِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: 90].

وواحد في هود:

14: ﴿فَإِلَٰهٌ يَسْتَجِيبُ لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنَّ لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أُنشِئُ مُسْلِمُونَ﴾ [هود: 14].

وواحد في الرعد:

15: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٍ﴾ [الرعد: 30].

وواحد في النحل:

16: ﴿أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل: 2].

وثلاثة في طه:

17: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [طه: 8].

18: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: 14].

19: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: 98].

وإثنان في الأنبياء:

20: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾

[الأنبياء: 25].

21: ﴿وَدَا التَّنُونَيزَ إِذْ ذَهَبَ مُغْنِضًا فَنَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَكَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا

إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: 87].

وواحد في المؤمنين:

22: ﴿فَتَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ﴾

[المؤمنون: 116].

وواحد في النمل:

23: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل: 26].

وإثنان في القصص:

24: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ

تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: 70].

25: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ

الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: 88].

وواحد في فاطر:

26: ﴿بَيَّنَّا لِلنَّاسِ أَدْرَأُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقِي غَيْرَ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: 3].

وواحد في الصافات:

27: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: 35].

وواحد في الزمر:

28: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: 6].

وثلاثة في غافر:

29: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ﴾ [غافر: 3].

30: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [غافر: 62].

31: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: 65].

وواحد في الدخان:

32: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الدخان: 8].

وواحد في محمد:

33: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبِكُمْ وَمُتَوَكِّفِكُمْ﴾ [محمد: 19].

واثنان في الحشر:

34: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [الحشر: 22].

35: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: 23].

وفي التغابن واحد:

36: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التغابن: 13].

وفي المزمّل واحد:

37: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمّل: 9].

فهذا مجموع سبعة وثلاثين من كلمات لا إله إلا الله وردت في القرآن العظيم: ﴿رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: 10].

فصل: في أن عقول الخلق قاصرة عن معرفة الله تعالى. اتفق [عليه] مشايخ الطريقة وعلى هذا⁽¹⁾ نقل الأستاذ أبو القاسم القشيري في كتاب «الرسالة من باب التوحيد» عن يوسف بن حسين أنه قال: سمعت ذا النون المصري - وقد سئل عن التوحيد - فقال: أو لم تعلم أن قدرة الله تعالى في الأشياء بلا مزاج وصنعه الأشياء بلا علاج، علّة كل شيء صنعه، ولا علّة لصنعه، ومهما تصور في نفسك شيء فالله بخلافه.

وأقول: لما كان كل ما تصورته النفس فالله بخلافه لم يتمكن العقل والنفس من الإشارة إلى حقيقة معلومة بأن حقيقة الإله هي هذه الحقيقة.

وقال أيضاً: أعرف الناس بالله أشدهم تحيراً فيه. ويروى عن سهل بن عبد الله أنه سئل عن ذات الله فقال: ذات الله موصوفة بالعلم غير مدركة بالإحاطة، وقد حجب الخلق عن معرفة كنه ذاته ودلهم عليه بآياته، والقلوب تعرفه والعقول لا تدركه، ينظر إليه المؤمنون بالأبصار من غير إحاطة ولا إدراك نهاية.

وروى عنه أيضاً أنه قال: غاية المعرفة الدهشة والحيرة. وقال يوسف بن حسن: من وقع في بحار التوحيد لا يزداد على مرّ الأيام إلا ظمأً. ووقف رجل على حسين بن منصور فقال: أين الحق الذي تشيرون إليه؟ فقال: غفل الأنام ولا يغفل.

وقيل للشبلي: أخبرنا عن توحيد مجرد بلسان حق مفرد، فقال: من أشار إليه فهو ثنويّ ومن كَيْفَهُ فهو وثنيّ، ومن نطق فيه فهو غافل⁽²⁾ ومن سكت عنه فهو

(1) وعلى هذا من هنا إلى قيل للشبلي ساقط من (ب).

(2) غافل في (ب) عاقل.

جاهل، ومن وهم أنه واصل فليس له حاصل، ومن ظن أنه قريب فهو بعيد، ومن توهم أنه واجد فهو فاقد، وكل ما ميزتموه بأوهامكم، وأدركتموه بعقولكم في أتم معانيكم فهو مصروف مردود إليكم، محدث مصنوع مثلكم، وقال الشبلي أيضاً: ما شم روائح⁽¹⁾ التوحيد من تصور عند التوحيد. وقال ابن عطاء: العبد خلق آلة للعبودية لا للإشراف على الربوبية.

وقال آخر⁽²⁾: العقل يجول حول الكون فإذا نظر إلى [المكون]⁽³⁾ ذاب. واعلم أن من الناس من احتج في هذه المسألة بآيات، أولها قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: 91] قال أهل التفسير: أي ما عرفوه حق معرفته، من قدر الثوب إذا حزره وأراد معرفة قدره⁽⁴⁾.

واعلم أن هذا الاستدلال ضعيف؛ لأن هذه الآية وردت في ثلاثة مواضع:

أولها: في سورة الأنعام، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ بَشَرًا مِّنْ سَمَوَاتٍ﴾ فهوؤلاء الذين قالوا: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ بَشَرًا مِّنْ سَمَوَاتٍ﴾ كانوا منكرين لكل النبوات⁽⁵⁾، ومن كان كذلك كان كافراً فقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ عائد إلى هؤلاء.

وثانيها: قال تعالى في سورة الحج: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبًا مِّثْلُ مَا اسْتَمِعُوا لَهُمْ إِنَّكَ الْذِيكَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾.

ولمّا كان الكلام الأول مع عبدة الأوثان، كان⁽⁶⁾ هذا الكلام عائداً إليهم.

وثالثها: قوله تعالى في سورة الزمر: ﴿قُلْ أَفَعَبَّرَ اللَّهُ تَامُرًا وَعَبْدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبَطَ عَنْكَ لِئَنْتَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿بَلِ اللَّهِ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ثم قال بعد هذا: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾

(1) روائح: في (ب) رائحة.

(2) وقال آخر: من هنا إلى قوله: ما قدروا الله ساقط من (ب).

(3) [المكون] في الأصل: الكون.

(4) قدره: في (ب) مقداره.

(5) النبوات: في (أ) النبوة.

(6) هذا: ساقط من (أ).

﴿قَدْ رَوَى﴾ فيكون هذا الكلام عائداً إلى الذين أشار إليهم قبل هذه الكلمة بقوله (1): ﴿قُلْ أَفَعَيَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونَ بِعِبَادَةِ إِيَّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ [الزمر: 64].

وإذا أثبت هذا فنقول: قوله (2) تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ عائداً (3) في الآية الأولى إلى من أنكر نبوة كل الأنبياء، وفي الآية الثانية والثالثة إلى عبدة الأوثان.

فهذه الآية في المواضيع الثلاثة عائدة إلى الكفار. ولا يلزم من وصف الكفار بهذا الوصف أن يكون المؤمنون أيضاً كذلك (4)، وهذا سؤال حسن بل لمن يدعي كمال المعرفة أن يتمسك بهذه الآية لأنه تعالى لما جعل قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ عيباً على الكفار وطعناً فيهم وجب أن يكون حال المؤمنين بخلاف ذلك.

ومما اشتهر التمسك به في هذه المسألة قوله تعالى في سورة طه: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ عِندَهُ﴾ [طه: 110] وأجيب (5) عنه بأن قيل: لم لا يجوز أن يكون المراد من الآية يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، ولا يحيطون علماً بما بين أيديهم وما خلفهم فالضمير (6) في قوله: به لا يكون عائداً إلى الله بل إلى: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾؛ لأن عود الضمير إلى أقرب المذكورين هو الأولى. واعلم أن العمدة في هذه المسألة أن الله ﷻ غير متناه في الذات والصفات (7)، والعقل متناه في الذات والصفات، والمتناهي لا سبيل له إلى إدراك غير المتناهي وهذا هو النكتة، ونحن نشرحها لتظهر قوتها؛ فعقول الخلق (8) عاجزة عن معرفة كونه تعالى قديماً أزلياً، وذلك لأن كل ما يتحضره العقل استحضاراً على سبيل التفصيل من مقادير الأزمنة فذاك متناه، مثلاً نفرض قبل هذا الوقت ألف ألف سنة، ونفرض بحسب كل لمححة من هذه المدة ألف ألف سنة وهكذا إلى أقصى ما يقدر الوهم والخيال على استحضاره، ثم إذا

- (1) بقوله في (أ) لقوله.
- (2) فنقول قوله في (ب) فقوله.
- (3) عائداً في من هنا إلى قوله الآيات الثلاث ساقط من (ب).
- (4) أن يكون المؤمنون أيضاً كذلك في (ب) كون المؤمنين موصوفين بهذا الوصف.
- (5) وأجيب من هنا إلى قوله بما بين أيديهم من (أ).
- (6) فالضمير من هنا إلى قوله لأن عو ساقط من (ب).
- (7) والعقل إلى والمتناهي ساقط من (ب).
- (8) فعقول الخلق عاجزة في (ب) فنقول العقل عاجز.

تأمل العقل عرف أن كل ذلك متناهي الأول⁽¹⁾ وهو إنما كان قديماً أزلياً لأنه كان موجوداً قبل هذه المدة التي أحاط العقل والخيال بها؛ فثبت أن كل مقدار يصل العقل والخيال إليه، فالحق ﷻ ليس⁽²⁾ قديماً باعتبار أنه كان موجوداً في ذلك⁽³⁾ الوقت، فإذا لا سبيل للعقل ألْبَتَّة إلى معرفة القدم والأزلية. وإذا عرفت هذا في كونه أزلياً قديماً فاعرف مثله في كونه دائماً أبدياً؛ فإذا العقل ليس له ألْبَتَّة سبيل إلى معرفة كونه أزلياً ولا إلى معرفة كونه أبدياً دائماً، على سبيل التفصيل فإن كل ما يشير إليه العقل فأزليته وأبديته خارجتان عن ذلك التصور⁽⁴⁾.

وأيضاً إذا قلنا: موجود⁽⁵⁾ ليس بجوهر ولا عَرْض ولا محل⁽⁶⁾ ولا حال فهو نقيض معرفته⁽⁷⁾ فهذا ليس يقتضي معرفة ذات الله لأننا أردنا بقولنا: موجود ما ينافيه⁽⁸⁾ العدم، وهذا المفهوم المناقض للعدم أمر يصدق على جميع الموجودات، وحقيقة الحق لا توجد في شيء سواه، فالعلم بكونه موجوداً ليس علماً بحقيقته المخصوصة، وأما العلم بأنه ليس بجوهر ولا عرض ولا جسم فهذا علم بعدم هذه الأشياء، وليس علماً بحقيقته؛ لأن حقيقته ثابتة، والسلب لا يكون نفس الثبوت فيمتنع أن تكون حقيقته هي نفس أنها ليست بجوهر ولا بجسم ولا بعرض.

فثبت بمجموع ما ذكرنا أنه لا سبيل للعقول إلى معرفة حقيقته وما يحقق ما ذكرنا أن العقلاء اتفقوا على أن كل صفة شاهدها الحِسْ وأدركها العقل في المكونات فلو وصف الحق بها صار جهلاً، فإذا لا سبيل إلى معرفة الحق إلّا بنفي كل ما عرفه؛ ولهذا اتفقوا على أن أحسن كلمة قيلت في التوحيد ما قاله علي بن أبي طالب ﷺ، هو: أن المعرفة أن تعرف أن⁽⁹⁾ كل ما يتصور في ذهنك فالله بخلافه.

- (1) متناهي الأول في (ب) متناه له أول.
- (2) ليس ساقط من (ب).
- (3) في ذلك في (ب) في ما وراء ذلك.
- (4) خارجتان عن ذلك الصور في (أ) خارجة عن ذلك المقصود.
- (5) موجود ساقط من (أ).
- (6) في (أ) محال.
- (7) فهو نقيض معرفته ساقط من (ب).
- (8) ينافيه في (ب) يناقض.
- (9) أن: ساقط من (أ).

ثُمَّ قال المحققون: لَمَا كان كُلُّ ما تصور في ذهنك فالله بخلافه فلو تصور في وهمك من ذلك الخلاف شيء فالله بخلافه، ثم لو تصور في هذه المرتبة الثانية أمر آخر لزم نفيه فلم يبق للعقل في طريق معرفة الحق إلى أن يَنْفي كُلَّ شيء⁽¹⁾ وقع في خاطرك، ثم إذا وقع من هذا النفي شيء⁽²⁾ في ذهنه اشتغل بنفيه أيضاً وهكذا في النفي الثالث والنفي⁽³⁾ الرابع إلى غير النهاية، فلو بقي العبد أبد الآباد ودهر الدهرين لكان مشغولاً بنفي شغل القلب عن هذه الواردات وإزالة هذه التصورات، وإذا كان الأمر كذلك بقي الحق تعالى منزهاً عن لواحق فكره وإشارات عقله وعلايق ضميره وذكره.

الحجة الثانية: هي أن الإنسان عاجز عن معرفة نفسه فإنه إن قيل: أن نفسه هو هذا الهيكل المشاهد فهو باطل من وجهين:

الأول: أن الإنسان قد يعرف ذاته حال ما يكون غافلاً عن جميع أعضائه الظاهرة والباطنة والمعلوم مغاير لما ليس بمعلوم.

الثاني: أن ذاته من أول عمره إلى آخر عمره شيء واحد، وأجزاء بدنه غير باقية، والباقي مغاير لغير الباقي، فثبت أنه ليس عبارة عن هذا الهيكل المحسوس ثم بعد هذا يحتمل أن يقال أنه جسم في داخل هذا الهيكل إما في القلب فقط أو في الدماغ فقط أو يكون سارياً في كل البدن، ثم ذلك الجسم أهو من جنس الأجسام التي تولد البدن عنها أو هو جسم مخالف لهذه الأجسام في الماهية والحقيقة. ويحتمل أيضاً أن يقال أنه ليس بمتحيز ولا حال في المتحيز بل هو مدبر لهذا البدن على ما تقولهُ الفلاسفة.

واعلم أن هذه الاحتمالات بقيت من الزمان الأقدم إلى الآن وبعد ما زالت⁽⁴⁾ الشكوك والشبهات، ولا شك أن أعرف المعارف في الشيء المشار إليه بقولي أنا فإذا كان حالي في معرفة أظهر الأشياء كذلك فكيف يكون حالي في معرفة أبعاد الأشياء مناسبة عن علائق العقول وروابط الخيالات. وتحقيق الكلام فيه أن العقل كالشمع ولا شك أن كل ما كان أقرب إلى الشمع كان ضؤوه أكثر مما بعد عنه وأقرب الأشياء إلى

(1) شيء: في (ب) ما.

(2) شيء: ساقط من (أ).

(3) والنفي في (أ) ونفي.

(4) وبعد ما زالت في (أ) وما بعد وما زالت.

الشيء⁽¹⁾ نفسه فإذا كان نور العقل أضعف من أن يصير ذاته مضيئاً⁽²⁾ فحضرة الجلال مع بعده عنه بغير نهاية كيف يصير مضيئاً به؟ ولهذا قال السنائي الشاعر بالفارسية:

أي شده در شننا سي خود عاجز كي شناسی خدای را هوگز
چون تودر علم خود زبون باشي عارف كردگار چون باشي⁽³⁾

واعلم أنه كما وقعت الشبهات المذكورة في معرفة النفس فقد وقعت أيضاً في معرفة حقيقة الزمان وحقيقة⁽⁴⁾ المكان، وتحير الخلق في أن القوة الباصرة كيف تبصر بخروج الشعاع أو بحصول الشبح في العين أو بحالة مغايرة لخروج الشعاع وحصول الشبح، وكذا القول في البحث عن القوة السامعة والذائقة وتحيروا أيضاً في البحث عن كيفية التخيلات فإن هذه الصورة المتخيلة إن لم يكن لها وجود أصلاً فكيف حصل فيها التمييز والتعيين؟ وإن كان لها وجود فهي قائمة بأنفسها أو بمحلها⁽⁵⁾، ومحلها شيء مجرد أو جسم والكل محال ممتنع. ولما كانت معرفة الخلق بهذه الأمور الظاهرة الجليلة بلغت في الصعوبة إلى هذا الحد فما ظنك بمعرفتهم بمن تقدر عن مناسبة⁽⁶⁾ العقول والأفكار وتنزه عن مشابهاة الخيالات⁽⁷⁾ والأنظار.

الحجة الثالثة: قد ثبت في العلوم الحقيقية أنه ﷻ هو النور المطلق وهو نور الأنوار وكما أن من وضع السراج في مقابلة الشمس انطفأ ولم يظهر ألبتة له أثر، فكذلك إذا وقع ضوء العقل في مقابلة نور جلال الله فني واضمحلت وتلاشى، ولذلك قالوا⁽⁸⁾: بأن العقل يدور على المكونات فإذا وصل إلى حضرة مكون الأكوان ذاب.

واعلم أن القطرة إذا وقعت في البحر اضمحلت والشعلة إذا وقعت في مقابلة

(1) الشيء ساقط من (أ).

(2) فإذا كان... إلخ في (ب) نور العقل في الضعف إلى حيث لم تصر به ذاته مضيئاً.

(3) ترجمة البيتين:

متى تعرف ربك؟ لا تعرف ذلك قط
فكيف تكون عارفاً بالخالق؟

يا من عجزت عن معرفة نفسك
فإذا كنت عاجزاً عن العلم بنفسك

(4) الزمان وحقيقة ساقط من (أ).

(5) أو بمحلها ساقط من (ب).

(6) مناسبة في (ب) مناسبات.

(7) الخيالات في (أ) الجليات.

(8) قالوا في (أ) قال.

قرص الشمس فנית وبطلت، ونسبة القطرة إلى البحر والشعلة إلى الشمس أعظم من نسبة نور العقل إلى أنوار الجلال بل لا نسبة لأحد البابين إلى الآخر لأن القطرة متناهية والبحر متناهٍ وللمتناهي إلى المتناهي نسبة وهكذا⁽¹⁾ الشعلة، أما نور العقل فهو في غاية القصور في القلة⁽²⁾ ونور جلال الله في غاية العظمة وعدم التناهي فلما اضمحلت القطرة في البحر والشعلة في الشمس فكيف يعقل بقاء ضوء العقل في حضور نور جلال الله وشروق أعلام كبريائه.

الحجة الرابعة: أن نسبة نور العقل إلى منبع الأنوار الروحانية كنسبة نور البصيرة إلى منبع الأنوار الجسمانية، وكما أن الشمس أظهر الأشياء من وجه وأخفاها من وجه آخر فكذلك منبع الأنوار الروحانية بالنسبة إلى عين البصيرة يكون أظهر الأشياء من وجه وأخفاها من وجه آخر.

الحجة الخامسة: العقل أضعف من العاقل لأن العقل صفة والعاقل موصوف، والصفة أضعف من الموصوف فإذا عجز العاقل عن المعرفة فلأن يعجز العقل مع غاية ضعفه كان أولى.

الحجة السادسة: من أمكنه إدراك شيء بتمامه وكماله فله قدرة بوجه ما عليه وقدرة المحدث ممزوجة بالعجز ومتناهية، والحق سبحانه واجب الوجود غالب لا يغلب قاهر لا يقهر فالمحدث الموصوف بالقصور والتناهي كيف يمكنه معرفة القديم الذي لا نهاية له.

الحجة السابعة: العقل لا يتصرف إلا فيما يكون في مكان أو زمان لأن كل ما أدركه فإنه يدركه إما في الماضي أو في المستقبل أو في الحال وكل ذلك بحسب الزمان وكل ما يتصوره فإنه إنما يتصوره إما هنا أو هناك وكل ذلك بحسب المكان، وإذا قلت الحق بخلاف هذه الأشياء فمعرفةك في هذه المعرفة ليس إلا نفي ما عرفته وتصورته فالحاصل فيه نفي غير الحق ونفي غير الحق لا يكون [هو] وجدان الحق.

الحجة الثامنة: اشتهر في أقوال الخلق قولهم: إنما يعرف ذا الفضل من الناس ذوه فلم لم يكن الإنسان أعلم من غيره لا يمكنه أن يعرف مقداره ألا ترى أن الناس

(1) وهكذا في (ب) وكذلك.

(2) فهو في غاية القصور في القلة في (ب) فهو في غاية القلة والقصور.

يقولون: لا يقدر على التمييز بين فلان وفلان إلا من كان أعلم منهما لأنه لا بد أن يعرف مقدار معلومات هذا ومقدار معلومات ذاك، ومقدار ما به ازداد أحدهما على الآخر وما انتقص منه⁽¹⁾ فهذا لا يتيسر إلا لمن كان أعلم من كل واحد منهما، فإذا كان لا يتيسر للناقص أن يحيط بمن هو أكمل منه في العرف في الشاهد⁽²⁾ فكيف يتيسر للعقول الناقصة الإحاطة بجلال من جلاله غير متناهٍ.

الحجة التاسعة: العقل كالأنثى والفكر كالذكر فإذا حصل ازدواج بينهما تولدت المعرفة ولا شك أن الولد يكون على قدر قوة الأبوين، والعقل ناقص فكيف وهو عاجز عن معرفة نفسه والفكر ناقص وكيف ولا يمكنه أن يصون نفسه عن الغلط⁽³⁾ وإذا كان الأبوان في غاية النقصان كيف يعقل أن يكون الولد في غاية الكمال فامتنع تولد مثل هذه المعرفة على غاية شرفها من هذين الأبوين.

الحجة العاشرة: إذا أدرك العقل شيئاً وقف عند مدركه وما انتهى إليه، وكل مدرك هذا شأنه فهو متناهٍ والحق لا نهاية له وهذا يوجب أن ذلك المدرك ليس هو الحق بل كان شيئاً غير الحق.

الحجة الحادية عشرة: قال عليه السلام: «قلب المؤمن بين إصبعين من أصبع⁽⁴⁾ الرحمن» وهذا عبارة عن كونه محدوداً مقصوراً مقلوباً متناهياً وما كان كذلك امتنع أن يكون له إحاطة بما لا نهاية له، ومن النكت في هذا الباب وجوه:

الأول: أخبر عن ضعف البشر فقال: ﴿وَإِنْ يَسْأَلُهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّلَبِ وَالْمَطْلُوبِ﴾ [الحج: 73]، فمن بلغ عجزه إلى حيث لا يقوى على مقاومة الذباب فكيف يمكنه الوصول إلى كنه صمدية رب الأرباب؟

الثاني: قالوا: الرجل إذا كان في مفازة عظيمة واشتد به الحر ولم يكن هناك ماء أصلاً وألبتة، واشتد عطشه وغلبه خوف فقدان فيألى أي جهة نظر ظنه ماء ورآه

(1) وما انتقص منه في (ب) أو انتقص منه .

(2) في العرف في الشاهد في (ب) في المعرفة وفي الشاهد .

(3) الغلط في (أ) عن النظر .

(4) أصبع في (ب) أصابع .

سراباً فإذا وصل إليه لم يجد عنده شيئاً كما قال تعالى: ﴿حَوَّجَ إِذَا جَاءَهُمْ لَمَّا يَجِدُهُ شَيْئاً﴾ فكذلك العقول البشرية والأرواح الإنسانية وقعت في بيداء كبرياء الله تعالى فعظمت الأنوار وتعاكست الأشعة وغلبت حرارات الاشتياق إلى الوصول إلى حضرة الله تعالى، فكلما نظر إلى جانب ظنه ماء المعرفة فالمعطلة نظروا إلى جانب البادية فظنوا أن الماء هناك، والمشبهة نظروا إلى جانب (1) الإثبات فظنوا أن ماء العرفان هناك وكذلك القدر والجبر والرفض والخوارج ثم إن كان كل واحد توجه إلى مقصده وصار إلى مطلبه فوصلوا إلى مطالبهم يوم القيامة فلم يجدوا هناك من هذا الحديث شيئاً كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِن عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً﴾ ثم الأقوياء لما عرفوا عظمة المفازة وعجز البشرية وحيرة العقول فرغوا (2) عن أنفسهم واستعانوا بإرشاده وهدايته فقال الخليل: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَآلِ حَقِّي بِالصَّالِحِينَ﴾.

وقال يوسف الصديق عليه السلام: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَآلِ حَقِّي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: 101]، وقال الكلیم عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ [طه: 25-26] وقال سليمان: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: 19]، وقال عيسى عليه السلام: ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُمْ فَقَدْ عَلِمْتُمْ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: 116] وقال الحبيب: «أرنا الأشياء كما هي».

الثالثة: قالوا: الصبي ينظر في المرأة فيرى فيها صورته (3) فيشتاق إلى أن يقرب من تلك الصورة، فيقرب من الصورة فيرى تلك الصورة أيضاً تقرب منه، فإذا رأى قرب الصورة منه حال قربه منها يشتد (4) طمعه في أخذها فيمد يده إليها ليأخذها.

فإذا مد يده رأى حجاباً من الحديد ورأى الصورة مخفية (5) بحجب العزة وسرادقات القدرة، فهكذا القوة العقلية تنظر في مرآة (6): «من عرف نفسه» فيلوح له تجلّي أنوار معرفة ربه، فكلما كان نظر العين إلى هذه المرآة أشدّ كان هذا (7) التجلّي

(1) جانب ساقط من (أ).

(2) فرغوا في (أ) فروا.

(3) صورته في (أ) صورة.

(4) يشتد في (ب) أشتد.

(5) مخفية في (ب) مخفية.

(6) مرآة: في (أ) المرآة.

(7) هذا: في (ب) ذلك.

أعظم؛ فيشتاق العقل إلى الوصول إلى كنه الصمدية، فيمدُّ يد الطلب فيرى بين نفسه⁽¹⁾ وبين المطلوب سداً من الأزلية والقَدَم والاستغناء فيبقى وراء هذا السدّ عاجزاً مسكيناً، وبسبب مدِّ يد التصرف يزول ذلك التجلي محتجباً بسرادات الكبرياء والعظمة والجبروت.

الرابعة: كان سوداوي⁽²⁾ يحمل حملاً من القوارير، وكان يذهب به لأجل التجارة إلى بلد، فلما وصل إلى باب البلد وضع ذلك الحمل ثم قال: إني إذا دخلت هذه البلدة أبيع هذه القوارير وأشتري بأثمانها الغنم ثم يحصل من نتاجها وأولادها مال عظيم أشتري به⁽³⁾ آلات المملكة، فإذا حصل الملك أتزوج بابنة الملك الفلاني ويحصل لي منها أولاد، ثم أحضر الأدياء والعلماء لتأديبهم وتعليمهم ففي أثناء ذلك ضرب يده على الحمل فسقط الحمل وانكسر الكل.

وهذا مثل لأكثر توهمات الخلق فإن كل أحد يظنُّ أنّ ما معه من العلوم والأعمال يكون وسيلة له⁽⁴⁾ إلى وجدان ملك الجنة والوصول إلى عتبة حضرة الله - جلّ وعزّ - فإذا جاء وقت الموت بطلت تلك الأوهام وزالت الأفكار وبقي المسكين على تراب الحرمان وموضع الذلة والعجز.

الخامسة: من أسمائه تعالى الجبّار، وهو مأخوذ من قولهم: (نخلة جبارة)، إذا لم تصل إليها الأيدي، فكذا ههنا الأفهام⁽⁵⁾ لا تصل إلى صمديته؛ فالعبد له اليوم عرفان وجوده وغداً طلب جوده، وحقيقة الصمدية منزّهة عن الإحاطة والإدراك.

السادسة: للسيارين⁽⁶⁾ إلى الله ثلاث مقامات: الحكم والحقُّ والأمر، ثم كلُّ ما دخل تحت الوجود أن عرضته على نفاذ الحكم كان الكلّ⁽⁷⁾ حسناً لأن الكلّ بتقديره وحكمه حصل.

(1) بين نفسه: في (ب) بينه.

(2) سوداوي في (أ) سوادّي.

(3) به آلات: في (ب) به الخيل والبغال ثم يحصل من نتاجها مال عظيم أشتري به آلات.

(4) له: ساقط من (ب).

(5) الأفهام: في (ب) الأوهام.

(6) للسيارين: في (ب) للسيارين.

(7) الكلّ: ساقط من (ب).

وإن عرضته على نفاذ الحق كان الكلّ قبيحاً لأن المعارف بالنسبة إلى حضرة جلاله جهل والعبادات بالنسبة إلى عتبة عزته تقصير.

أما إن عرضته على نفاذ الأمر كان البعض حسناً والبعض قبيحاً؛ فالحكم فضل محض والحق عدل محض والأمر تارة مع الفضل وتارة مع العدل.

فإن عُرضت على الحكم أعمال كل الخلق لم يكن شيء منها مردوداً، وإن عُرضت على الحق أعمال الأنبياء والملائكة لم يصر شيء منها مقبولاً. وأما الأمر فعلى ما عرفت بالفارسية: (هر باركه در⁽¹⁾ آینه امر نگرى سودايى در سرت پديد) آيد: (لي من كسبي امرلكم بر عقب آن در آينه حق نگرى تاخودرا از عدم گم بيني، امروز أنبيا بنبوت ورسالت مة نگرند، ملائكة بطاعت وعصمت مي نگرند موحدان باخلاص وایمان می نگرند، فرداچون سرادقات جلال بازگشتند وسراپرده عزت بزند، وأعلام جلال حقيقت ظاهر کنندهم فرياد عجز فزایش آرند: یکی گوید): (ما عبدناك حق عبادتك) یکی گوید: (ما عرفناك حق معرفتك).

السابعة: در راه إلهیت أو هرکه خواست که پیش رود فروماند نور عقل خواست که پیرا من جلال او گردد هباء منشور گشت، سروجان خواست که قدر کمال او بداند حیره گشت، معرفت خواست که بحضرت قدس او محیط شود عاجز شد.

أي دیده عقول در إدراك جلال أو حيره واحداقأرواح در مقابلة نور عزت أو تيرة، أفكار أرباب حکمت در نثار بحار عظمت أو غرق شده، نتایج أصحاب فکر و فطنت در أنوار أسرار جلال أو محترق گشته، زبانهای أهل فصاحت از اگر، هزار دلائل وحدانیت جوئی و آنچه بنقل آمده است نقد کنی و بر تجار منقول و معقول عرض کنی و دُرّ و عزیز و جواهر و زواهر در سلك تحصیل کنی چون نيك نظر کنی خودرا در پله زیري: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: 255]، بيني ودون العين أستار وفي الأستار أسرار محجوبة عن الأغيار، فسبحان من عزيز ضلّت العقول في بحار عظمته و حارت الألباب دون إدراك نعمته [و] أصبح منسوباً إلى العي.

(1) هريار من هنا إلى قوله تقرير آخر إلخ اسقطه (ب) منبهاً على أنه تعمد ذلك.

شرح ومدح جمال أو كليل ودر هرگوشه هزار [ذبيح]⁽¹⁾ وجريح وشهيد وقتيل .

المناجاة: أي أنكه تراجستن محال وازتو عبارت کردن وبال چون بامنی تراچگونه جویم، وچون بهیچ چیز نمایی ازتوچگونه عبارت کنم، نه بی تو ایمان ونه باتو توان: (لا منك فرار ولا معك قرار المستغثات منك إليك). أي عزّ توهمة عزّهارا نعت دل برکشیده وای جلال توهمة کلالها را داغ احتلال برنهاده، أي کمال توهمة کالمهار رارقم نقصان برزده، أي الهیّت توهمة عالمرار بق عبودیت درگردن کرده، أي ذات تویی این وای صفات تویی کیف وای بطش تویی جارحه، أي بصرتویی حدقه، ای صفات تو عقولرا متحیر کرده، أي صمدیت تو جانهارا سراسیمه گردانیه، أي ارادت ومشیت وأحكام آلهیّت تو از آایش وهم خلق پاک، أي غیب غیب وازل ازل تواز هواجس خواطر وضما یرآب وگل منزه، أي همه جانها بر (من ترید) عشق تونهادة وجز [وحشت]⁽²⁾ سود ناکرده، ای همه عشاق قصد رواق اشراق توکرده وجز نومیدی بدست نا آورده، أي همه أحباب بادل کباب قدم در راه تونها ده ومال وعیال وجاه ومهری وسروری برباد داده وجزباد بدست ایشان نا آمده یا أرحم الراحمین .

تقریر آخر: فی أنه لا سبیل إلى معرفته .

لا شك أن كل من كان انقطاع نظره عما⁽³⁾ سوى الحق أكمل وكان استغراق قلبه في معرفته أتمّ كانت معرفته أكمل، ولا شك أن محمّداً عليه أفضل الصلاة والسلام ليلة المعراج⁽⁴⁾ بلغ الغاية القصوى في هذا الباب وكانت معرفته أكمل المعارف ثم إنّه مع ذلك اعترف بعدم المعرفة لأنه قال: (لا أحصي ثناء عليك) فإذا كان [هو] مع كمال القرب لم يعرف فمن كان في غاية البُعد كيف يمكنه المعرفة؟ والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب .

(1) [ذبيح] في الأصل: مديح .

(2) [وحشت] في الأصل: (حسب) .

(3) عما: في (ب) ما .

(4) ليلة المعراج: ساقط من (ب) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَبِهِ الْعَوْفُ

النوع الثاني من علوم هذا الكتاب في تقرير الدلائل الدالة على إثبات الصانع ﷻ

وهذا النوع مشتمل⁽¹⁾ على مقدمة وأبواب.

أما المقدمة فاعلم أنه تعالى رتب دلائل إثبات الصانع في القرآن العظيم على وجهين:

الأول: أنه تعالى ابتداء من الأعرف فالأعرف نازلاً إلى الأخفى فالأخفى في الدلائل، وهذا هو الترتيب⁽²⁾ الذي اختاره في سورة البقرة لأنه ابتداء باستدلال كل⁽³⁾ أحد على وجود الصانع بنفسه وذاته فقال: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: 21] ثم ذكر عقيبه استدلالهم بأحوال آبائهم وأجدادهم ثم ذكر عقيبه استدلالهم بأحوال الأرض فقال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ ثم ذكر عقيبه الاستدلال بأحوال السماء ثم قال: ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ ثم ذكر عقيبه الاستدلال بالأحوال المتولدة بين⁽⁴⁾ السماء والأرض، والسبب في هذا الترتيب أن أظهر الأشياء لكل أحد نفسه ثم أبوه⁽⁵⁾ وأجداده ثم الأرض التي هي مسكنه، ثم السماء التي هي في غاية البعد عنه. ثم الأحوال لا يتولد إلا بمجموع الأرض والسماء وهو المراد بقوله: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ [البقرة: 22].

-
- (1) مشتمل في (ب) يشتمل.
 - (2) الترتيب: في (أ) الترتيبة.
 - (3) كل: في (ب) لكل.
 - (4) بين: في (ب) فيما بين.
 - (5) أبوه في (أ) أباه.

الوجه الثاني: في ترتيب الدلائل ما ذكره تعالى في أول سورة النحل فإنه تعالى ابتدأ من الأشرف فالأشرف نازلاً إلى الأدون فالأدون، وذلك لأنه تعالى ذكر المطلوب أولاً فقال: ﴿يُنزِلُ الْمَلَكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَيَّ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل: 2]، ثم أنه ابتدأ في (1) ذكر دلائل الصانع بالسموات فقال: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: 3]، ثم ذكر عقبه الاستدلال بالإنسان فقال: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ [النحل: 4] ثم ذكر بعده أحوال الحيوانات فقال: ﴿وَاللَّائِمَةَ خَلَقْنَا لَكُمْ فِيهَا دِفءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: 5]، ثم ذكر بعده أحوال النبات فقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: 10]، ثم ذكر أنواع (2) العناصر فذكر الماء فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ [النحل: 14]، ثم ذكر الأرض فقال: ﴿وَالَّذِي فِي الْأَرْضِ رَوًى أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: 15] ثم لما تم ذكر هذه الدلائل أعاد المطلوب الذي ذكره أولاً وقال: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 17]، والمطلوب منه إثبات التوحيد ونفي الشركاء والأنداد. ثم قال بعده: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: 18] يعني أن هذه الأشياء التي ذكرناها استدلالاً بها على الصانع وعلى وحدانيته فهي أيضاً نعم جليلة ومنافع عظيمة في حقكم، والإنسان لو استقصى في تعداد (3) نعم الله عليه فإنه يعجز بالآخرة (4) وأكثر دلائل القرآن هكذا فإنها تكون دلائل من وجه ونعماً من وجه آخر ومثل هذه (5) الدلائل الخفية تكون أنجع في القلب وأشد تأثيراً في الروح، لأنها من حيث أنها دلائل تفيد المعرفة ومن حيث أنها نعم تفيد الانقياد للمنع والاشتغال بشكره والخضوع لعز جلاله فإذا تعاون هذان الوجهان كمل حصول المقصود من الاعتراف بالخالق المنعم والانقياد لعز وجهه وكمال صمديته وإذا عرفت هذين النوعين من الترتيب في هذه الدلائل فنحن في هذا الكتاب (6) نرتب الدلائل على هذا (7) الوجه الثاني فنبداً بشرح دلائل السموات

- (1) ساقط من (أ).
- (2) أنواع في (ب) أحوال.
- (3) تعداد في (ب) تعديد.
- (4) بالآخرة ساقط من (ب).
- (5) هذه ساقط من (ب).
- (6) الكتاب في (ب) الباب.
- (7) هذا ساقط من (ب).

ثم نذكر دلائل الشمس والقمر، ثم نذكر دلائل⁽¹⁾ النجوم ثم نذكر دلائل الإنسان ثم نذكر دلائل النبات، ثم نذكر⁽²⁾ دلائل الآثار العلوية من الرعد والبرق والصاعقة والسحاب، ثم نذكر دلائل⁽³⁾ أحوال البحار ثم نذكر دلائل الجبال، وذلك هو تمام المقصود من هذا النوع والله الموفق للخيرات.

(1) ثم نذكر دلائل ساقط من (ب).

(2) نذكر ساقط من (أ).

(3) دلائل ساقط من (أ).